كتاب الدوحة

أنطون تشيخوف

رسائل إلى العائلة

ترجمة: ياسر شعبان

أنطون تشيخوف

رسائل إلى العائلة

ترجمة: ياسر شعبان

كتاب الدوحة 42

يوزع مجاناً مع العدد 85 من مجلة الدوحة نوفمبر 2014

أنطون تشيخوف

رسائل إلى العائلة

ترجمة: ياسر شعبان

الناشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

لوحة الغلاف: Osip Braz - روسيا
الإخراج الفني : علاء الألفي - مجلة الدوحة

الفهرس

تقديم

ولد أنطون بافلوفيتش تشيخوف في تجانروج عام 1860. والده هو بافلوفيتش، وكان يمتلك محلّ بقالة. وأمه هي يفجينيا، كانت تحكي له القصص عن طفولتها من حين لآخر، واحد من أكثر الكتاب شهرة في الاتحاد السوفيتي السابق، بل وفي العالم أجمع. وهو رائد القصة القصيرة بمعناها الحديث عن جدارة واستحقاق، وأثّر في هذا المجال في كثير من الكُتّاب مثل فرجينيا وولف على سبيل المثال... وفي العالم العربي كان له تأثير واضح على يوسف إدريس، الذي عدّه كثيرون «تشيخوف العرب».

كان طبع تشيخوف ليّناً ورقيقاً إلى درجة الإدهاش، وقد تشكّلت هذه الطباع على الرغم من الأسلوب العنيف للتربية التي تلقّاها في طفولته. كان والده مستبدّاً، وغالباً ما كان يلجأ إلى العقوبات الجسدية ولو على كسرة خبز أُعطِيت لكلب. كان تشيخوف وإخوته يأكلون حتى الشبع فقط عندما يحلّون ضيوفاً. تربّى الأطفال في ظلِّ القسوة والانصياع، وهنا يمكن أن نسأل: من أين أتت تلك الطيبة «التشيخوفية»؟!. ولايزال نور تشيخوف يُدفئ حتى الآن. فلا مكان للانقباض والكآبة في قصصه، وسخريته ناعمة لا تجرح أحداً.

في عام 1876، تعرَّض والده للإفلاس. ومنذ ذلك التاريخ عانت عائلة تشيخوف من الفقر. وكان على تشيخوف أن يتحمَّل تكاليف تعليمه. وقد غطّى هذه المصروفات بالتدريس لطلبة آخرين، واصطياد الطيور وبيعها، وكتابة القصص القصيرة للصحف. وكلما ادَّخر بعض النقود كان يرسلها مباشرة إلى أسرته. وخلال فترة دراسته قرأ الكثير من الكتب لكبار المؤلِّفين العالميين، من أمثال سرفانتس وشوبنهاور.

عام 1879، التحق تشيخوف بجامعة موسكو. وخلال فترة دراسته كتب العديد من القصص القصيرة لتسديد مصروفات الجامعة ومساعدة أسرته. وفي عام 1886، طلبت منه واحدة من كبريات الصحف الروسية «نوفوي فريميا- Novoye Vremya- New Times» أن يكتب لها القصص. وسرعان ما اكتسبت قصصه شهرة، واطّلع كتاب آخرون على قصصه، وأُعجبوا بها. كتب مجموعة قصصية بعنوان «At Dusk» وهي التي فازت بجائزة بوشكين، وهي جائزة للكتابة القصصية المتميِّزة.

وفي عام 1887 كتب مسرحية بعنوان «إيفانوف Ivanov»، التي حازت إعجاب النقّاد رغم أن تشيخوف لم يكن راضياً عنها.

اشترى تشيخوف منزلاً وقطعة من الأرض في مليخوفو Melikhovo بالقرب من موسكو، وذلك في عام 1892، وفي أثناء وجوده هناك، ساعد الناس الذين عاشوا بالقرب منه، فكان يحضر لهم الطعام والملابس، والدواء عند المرض، كذلك كان يقوم بتطبيبهم.

وفي أثناء وجوده في مليخوفو، بدأ كتابة مسرحيته «النورس - The Seagull». وعند عرضها لأوّل مرة، جاء أداء الممثِّلين سيّئاً للغاية، ولم تحظَ بإعجاب الجمهور. ولاحقاً تَمَّ عرضها على مسرح آخر، مسرح الفن في موسكو، حيث تحسَّن أداء الممثلين. وبعد فترة قصيرة تَمَّ تمثيل مسرحية أُخرى له بعنوان «العم

فانيا - Uncle Vanya». وبعد ذلك كتب مسرحيتين عظيمتين، هما: «الأخـــوات الـثـلاث -Three Sisters»، و«بســتان الكـــرز- The Cherry Orchard». وحتى وقتنا الحاضر ما زالت هذه المسرحيات محلّ اهتمام المسرحيين الذين يقومون بعرضها، أو بعرض معالجات جديدة لها.

وفي عام 1897 أصيب تشيخوف بداء السلّ، وفَرض عليه المرض أن يقوم بتغيير نمط حياته لتتحسَّن صحّته. وانتقل إلى يالطا حيث اشترى هناك منزلاً، ولاحقاً، تزوَّج من أولجا نيبر وهي ممثِّلة مسرحية قامت بأداء البطولة النسائية في معظم مسرحياته. وفي يالطا، كتب بعض قصصه الأكثر شهرة، ومن بينها قصة «السيدة والكلب - The Lady With The Dog».

ساءت حالته الصحية للغاية في ربيع عام 1904، ممّا جعل الأطباء الروس ينصحونه بالسفر إلى خارج روسيا، فسافر إلى بادن فيلر، منتجع جبلي في جنوب ألمانيا. وبوصوله بصحبة زوجته؛ أدرك تشيخوف أنه يُحتضَر، لكنه مع ذلك ظلّ يتحدّث عن مشاريعه بالكتابة والسفر، حتى أنه فرح بالفرصة التي اقتنصتها زوجته الحبيبة عندما تركته فجأة في المنتجع، فزفّ الخبر إلى أخته ماريّا في رسالة: «لقد سافرت أولجا إلى سويسرا لتعالج أسنانها»، فبدا الأمر كما لو أن أولجا فعلت ذلك لتؤكّد مرة أخرى على الشبه بين موت تشيخوف وموت إيفان إيليتش، بطل رواية تولستوي القصيرة التي عَدَّها بعض النقاد المصدر الرئيس لقصة تشيخوف «حكاية مملّة». كانت زوجة إيفان إيليتش منشغلة عن احتضار زوجها بحياتها الاجتماعية الزاخرة بالاستقبالات المرحة والناس الجذّابين تاركةً إياه مع سرير نظيف، وحائط أصمّ، وخادم رائع.

قال إيزاك التشولّر طبيب تشيخوف في يالطا: «إن الزوجة الشابة التي أحبَّها تشيخوف بجنون تكشّفت عن أنانية مرعبة... كانت تترك المريض وحيداً لشهور عديدة».

وكتب الدكتور إريك شفيرير بعد وفاة تشيخوف يلومه على سفره إلى سَخالين وعلى أسفاره الأخرى: «كان كاتباً رائعاً ولكنه طبيب سيّء للغاية لأنه جرؤ على السفر في الوقت الذي كان عليه كمريض بداء في الصدر أن يتدفّأ، ويشرب الحليب الساخن مع توت العلّيق».

وكان تشيخوف قد توجَّه في عام 1890 إلى سيبيريا، ومنها إلى جزيرة سَخالين، وهي عبارة عن سجن مفتوح أو معسكرات عمل للمجرمين. وهناك تحدَّث إلى الكثير من المسجونين، واكتشف أنهم كانوا يعاملون بطريقة سيّئة للغاية. وكانوا كثيراً ما يتعرضون للضرب. وبينهم كان هناك بعض الأطفال.

ووصف ترحاله عبر أنهار سيبيريا ودروبها في مجموعة مقالات «عبر سيبيريا»، ثم جمع في سَخالين مادة وثائقية ضخمة عن السجناء والسكّان المحلّيين متحاوراً مع الكثيرين منهم ودارساً بالتفصيل ظروف حياتهم اليومية، ثم عن إدارة السجون وتعسُّف الموظّفين، ومنها ألّفَ كتابه «جزيرة سَخالين -The Island Of Sakhalin» وكذلك قصة بعنوان «القاتل» The Murder.

بعد عودته من سفره الشاقّ الطويل، تخلّى تشيخوف عن إعجابه برواية تولستوي القصيرة «سوناتا كريتزر»، وكان قد صرح قبل كتابته «جزيرة سَخالين» في رسالة إلى بيليشيف: «من بين كل ما يُكتب الآن عندنا، وفي الخارج، تكاد لا تعثر على عمل يضاهي «سوناتا كريتزر» من حيث أهمّيّة الفكرة وجمال الأداء».

لكنه، بعد ذلك، كتب في رسالة إلى سوفورين: إن «سوناتا كريتزر» الآن مضحكة بالنسبة إليّ، وتبدو مربكة، أو أن رحلتي (إلى سَخالين) جعلتني أبلغ سنّ الرشد».

وبعد هذه الرحلة توقَّف تشيخوف عن متابعة كتابة مشروع روايته الوحيدة «قصص من حياة أصدقائي»، بعد أن كان ورّط بطلها بموقفه المتحمِّس من «سوناتا كريتزر» قبل «جزيرة سَخالين»، وإن كان قد أَكْثَرَ الحديث عن هذه الرواية إلى كثير من معارفه، وعلى مدى سنوات ظلّ يَعِدُ بإنجازها القريب؛ كتب في رسالة إلى أخيه ألكسندر في عام 1887 يقول: «عندي رواية ليست مملّة، ولكنها لا تصلح لمجلّة». وكتب يقول في رسالة إلى جريجوروفيتش في عام 1888: «تتناول الرواية بعض العائلات، وهناك شخصيتان رئيستان: رجل وامرأة، تتحلّق حولهما الأحجار الأخرى.».

وفي رسالة إلى سوفورين كتب يقول في عام 1889: «إنني أكتب هذه الرواية على شكل قصص منتهية منفردة وشديدة الصلة فيما بينها عبر مجموعة من المغامرات والأفكار والشخصيات، ولكل قصة عنوانها الخاص».لكنه -مع ذلك- لم ينجز هذه الرواية، بل سجَّلَ موقفاً مثيراً، سيظهر بعدئذ في كتاب «تشيخوف في مذكرات معاصريه»، إذ قال: «لم يتقن كتابة الرواية إلا النبلاء»، الشرط الذي لا يستوفيه هو نفسه، فقد كان جدّه لأبيه قنّاً، افتدى نفسه وأولاده عام 1844، أي قبل ولادة تشيخوف بستّ عشرة سنة فقط.

وحتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، كان تشيخوف رقيقاً للغاية، كحاله طوال حياته. كان يقلقه شيء واحد فقط: ألا يزعج أحداً. وحين ساءت حالته ليلة الثاني من يوليو «تموز» من عام 1904 في منتجع بادن فيلر، طلب استدعاء الطبيب، لكنه تمنّى عدم إيقاظ الصبي لكي يذهب من

أجل أسطوانة الأكسجين. فهو لن يجد الوقت الكافي في جميع الأحوال. جاء الطبيب، فخاطبه تشيخوف بألمانيته المحدودة: «إيخ شتيربي – إنني أموت!». وبعد سنوات علّقت زوجته أولجا كنيبر على هتافه هذا: «إنني أموت!» كرّرها تشيخوف بالروسية، كما لو أنه يترجم صيحته الأخيرة لزوجته التي ترافقه في رحلته الأخيرة. وبهدوء، دون أي اختناق مبرّح وهذا نادراً ما يحدث عند وفاة المصابين بالسلّ، انتقل إلى العالم الآخر...

تواريخ

1875: غادر تشيخوف تاجانروج بعد تعرُّضه للإفلاس، ولطرد أسرته من المنزل الذي كانت تعيش فيه.

1879: التحق بكلية الطب في موسكو.

1882: نشر قصصاً قصيرة ورسومات في صحيفة «أوسكوكي Oskoki» الفكاهية في سان بطرسبرج.

1884: مارَسَ مهنة الطب.

1887: بداية نشر قصصه القصيرة في الصحف الكُبرى.

1890: 21 أبريل، بدأ رحلته إلى جزيرة سَخالين في سيبريا، مروراً بمعسكرات العمل التي كان يتمّ نقل المجرمين إليها. ووصل إلى الجزيرة في 11 يونيو من العام نفسه.

1895: افتتاح مسرح الفن في موسكو. وانتهاء تشيخوف من كتابة مسرحيته «النورس».

1897: أُصيب بالدرن الرئوي «السلّ».

1901: عرض مسرحية «الأخوات الثلاثة» على مسارح فقيرة. تزوّج من ممثّلة المسرح أولجا كنيبر. عرض مسرحية «بستان الكرز»، وهي آخر مسرحيات تشيخوف.

1904: بعد تعرُّضه لأزمتين قلبيتين، رحل تشيخوف وهو في مصحّة بادن فيلر، وهو في الرابعة والأربعين.

حول الترجمة

مثلما نحن مدينون للمؤلِّفين بالكثير من المعرفة والمتعة، فنحن مدينون، -وربما بنفس القدر- للمترجمين، خاصة أن مهنة الترجمة تستهلك الكثير من الوقت والبصر والحواس، وبشكل خاص في حالة تنوُّع من يُترجَم لهم، ففي الترجمة لابد أن تتفاعل مع النص وخلفيته الثقافية والتاريخية، وكذلك مع سمات مترجمه الأسلوبية والشخصية.

معظم المترجمين المعروفين من الرجال، ولا يقتصر ذلك على عالمنا العربي، بل يكاد يكون ظاهرة عالمية عبر التاريخ. وهكذا فإن التصدي لترجمة عمل لمترجِمة يستحقّ التوقُّف، خاصة إذا كانت رائدة في مجالها ثقافياً وتاريخياً.

وهذا ما ينطبق على كونستانس جارنيت مترجِمة رسائل تشيخوف التي نقدِّمها للقارئ العربي عن النسخة الإنجليزية ضمن كتاب «الدوحة». وكونستنانس جديرة بلقب رائدة مترجمي الأدب الروسي إلى الإنجليزية، وما زالت ترجماتها حتى الآن نماذج تحتذى لأيّ مترجم يتصدّى لترجمة الأدب الروسي الكلاسيكي.

كونستانس جارنيت (16 ديسمبر 1861 - 17 ديسمبر 1946)، الطفلة السادسة بين ثمانية أطفال لأب يعمل بالمحاماة، دافيد بلاك (1817 – 1892)، ولأمّ هي كلارا ماريا باتين (1825 – 1875). ومن إخوتها عالِم الرياضيات المعروف آرثر بلاك. في عام 1873م أصيب والدها بالشلل، وبعدها بعامين توفِّيت أمّها بعد أزمة قلبية فاجأتها وهي تعين زوجها على الانتقال من مقعده إلى سريره.

تلقَّت تعليمها في المدرسة العليا التابعة لبرايتون وهوف، وبعدها درست الأدبين اللاتيني واليوناني في كلية نيونهام كمبريدج بمنحة دراسية حكومية. وفي عام 1833 انتقلت إلى لندن حيث عملت في البداية موظفة حكومية، ثم أمينة مكتبة في مكتبة قصر الشعب. ومن خلال أختها الروائية والمسؤولة في النقابة العمالية، كليمينتينا بلاك، قابلت د. ريتشارد جارنيت، والذي أصبح لاحقاً المسؤول عن مطبوعات المتحف البريطاني، وابنه إدوارد جارنيت الذي تزوّجت به في برايتون 31 أغسطس 1889. وكان إدوارد يعمل محرِّراً لدى عدد من الناشرين (تي. فيشر أنوين، ويليام هينمان، ودوكوورث) قبل أن ينتقل للعمل لدى الناشر المعروف جوناثان كيب.

وفي صيف عام 1891، حملت بطفلها الوحيد، وقدَّمها إدوارد للّاجئ الروسي فيليكس فولخوفسكي، والذي بدأ بتدريسها الروسية. كذلك قدّمها لرفيقه اللاجئ، كذلك، سيرجي ستيبنياك وزوجه فاني. وبعد فترة وجيزة بدأت تعمل مع ستيبنياك بترجمة الأعمال الروسية لنشرها. وكان أوّل عمل من ترجمتها بعنوان «قصة شائعة - A Common Story» للكاتب الروسي إيفان جونشاروف، و«مملكة الرب داخلك» للكاتب الروسي ليو تولستوي، ونُشرت خلال زيارتها الأولى لروسيا في بداية عام 1894.

وبعد زيارتها لموسكو وسان بطرسبرج، توجَّهت إلى ياسنايا بوليانا، حيث التقت ليو تولستوي. ورغم ما أبداه تولستوي من اهتمام برغبته في أن تقوم بترجمة المزيد من أعماله الدينية، إلا أن كونستانتس كانت قد بدأت ترجمة روايات تورجينيف، واستمرت في ترجمتها بعد عودتها إلى لندن. وبع وفاة ستيبنياك في 1895، استكملت كونستانس الترجمة بمعاونة زوجته فاني.

وخلال العقود الأربعة التالية، ترجمت جارنيت عشرات من أعمال تولستوي، وجوجول، وإيفان جونشاروف، وديستويفسكي، وتورجينيف، وأوستروفسكي، وألكسندر هيرزين، وتشيخوف.

على مستوى حياتها الشخصية، درس ابنها الوحيد، ديفيد جارنيت، البيولوجيا، وبعد فترة بدأ يكتب الروايات، ومن بينها الرواية ذات الشعبية «Lady into Fox» عام 1922. وفي نهاية عقد العشرينيات بدأ الوهن يدبّ في جسد جارنيت، وعرف الشيب طريقه إلى شعرها، وضَعُف بصرها للغاية. وفي عام 1934، اعتزلت كونستانس جارنيت الترجمة بعد نشر ترجمتها لثلاث مسرحيات من تأليف تورجينيف. وبعد وفاة زوجها في عام 1937، عاشت في عزلة تامة، وعانت من اعتلال قلبها ومن أزمات تنفسية، وخلال السنوات الأخيرة من حياتها لم يعد بوسعها المشي بلا عكازات.

ترجمت كونستانس 73 مجلّداً من الأعمال الأدبية الروسية، وحازت ترجماتها على إعجاب كبير من مؤلِّفين مرموقين مثل جوزيف كونراد، ود.هـ. لورانس.

ويرى البعض أنه من حيث قيمة المنجز الأدبي، تأتي جارنيت في المرتبة الثانية، لكنها تتميّز بضخامة ما أنجزته من ترجمات، فلقد ترجمت ما يزيد على سبعين مجلداً من الأدب الروسي بغرض النشر التجاري، ومن بينها جميع روايات ديستويفسكي، ومئات من قصص تشيخوف ومجلّدين لمسرحياته، والأعمال الرئيسة لتورجنيف، ومعظم أعمال تولستوي ومختارات لكل من هرزين، وجونشاروف، وأوستروفسكي.

وقال أحد أصدقائها، «د.هـ. لورانس»، مثمِّناً ما بذلته من جهد لإنجاز ترجماتها بإتقان قدر استطاعتها: «جالسة في الحديقة وأمامها مئات

الصفحات من ترجمتها الرائعة للأدب الروسي. وكانت عند الانتهاء من صفحة، تقوم بإلقائها فوق كومة من الأوراق على الأرض دون حتى أن ترفع رأسها، لتبدأ الترجمة من جديد. وكانت هذه الكومة ترتفع لتصل إلى ركبتيها، ليبدو المشهد كلّه سحريّاً..».

وكما قال إزرا باوند: «بدون جارنيت، لم يكن أدباء القرن التاسع عشر الروس ليتركوا هذا التأثير السريع على الأدب الأميركي في بداية القرن العشرين. ففي «قبضة متحرّكة» يذكر همنجواي بحثه في أرفف سلفيا بيتش عن الأعمال الأدبية الروسية، وكيف أنه وجد فيها عمقاً وإنجازاً لم يُعرَفا قبلها قَطّ. فقبل ذلك قيل له إن «كاثرين مانسفيلد» كاتبة قصة جيدة، بل كاتبة قصة عظيمة، لكنه قال «بعد قراءة تشيخوف اكتشفت أن قصصها تافهة، فقراءة الأدب الروسي بمثابة العثور على كنز.

وعلى الجانب الآخر، كان هناك منتقدون لترجمات جارنيت، من بينهم الروسيّان فلاديمير نابوكوف، وجوزيف برودسكي. وانطلق انتقاد نابوكوف لترجمات جارنيت من رؤيته المعلنة بأن المترجم المثالي يجب أن يكون ذكراً. أما برودسكي، فانتقد ترجمات جارنيت لافتقارها إلى السمات المميزّة لكل كاتب، بما يسمح بالوقوف على الاختلافات بينهم كما في اللغة الروسية، وقال «السبب الرئيس لندرة قرّاء الإنجليزية القادرين على التمييز بين تولستوي وديستويفسكي، يعود إلى أنهم لم يقرأوا ما كتبه كلاهما، بل قرأوا أعمالهما مكتوبة بأسلوب جارنيت».

ورأى آخرون من منتقديها أنها كانت متسرِّعة في ترجمتها، وكانت تغفل بعض التفاصيل الصغيرة لأجل سلاسة الترجمة، خاصة في ترجماتها لأعمال ديستويفسكي، ومن ذلك -على سبيل المثال- أنها كانت تتجاهل الأجزاء التي تضمّ كلماتٍ أو جملاً لا تفهمها.

ولم تمنع تلك الانتقادات أن يتّخذ المترجمون اللاحقون لها، مثل روزميري إيدموندز، ودافيد ماجارشاك، من ترجماتها نماذج تحتذى عند تصدّيهم لترجمة الأدب الروسي.

ياسر شعبان

القاهرة – 2014

المصدر:

- كونستانس جارنيت 22 يناير 2011.
(Constance Garnett ، Edna O’Brien، The Guarddian)
- حروب الترجمة The Translation War، دافيد ريمنيك ، 7 نوفمبر 2005.
(David Remnick، The New Yorker).

أنطون تشيخوف

رسائل إلى العائلة



صورة عائلية التُقطت عام 1876يتوسّطها الأب بافيل يجوروفيتش تشيخوف (1825 – 1898). امتلك محلّ بقالة. وكان شمّاساً بالكنيسة. اتّسمت تربيته لأطفاله بالتزمُّت الديني والأخلاقي.

1

إلى أمّه بفجينيا ياكوفليفنا موروزوف

باخرة «يرماك»، 20 يونيو 1890

تحيّاتي أيّها الأعزاء في منزلنا..

أخيراً بوسعي أن أخلع فردتَيْ حذائي (البوت) الثقيلتين والموحلتين، وبنطالي البالي المتّسخ، وقميصي الأزرق الذي يلمع بما عليه من تراب امتزج بالعرق. أخيراً بوسعي أن أغتسل وأرتدي ملابس أخرى مثل باقي البشر. لست مسافراً في عربة الشيز[1] بل كنت في الدرجة الأولى بباخرة «يرماك». لقد بدأ ذلك منذ عشرة أيام، فلقد كتبت لك من «ليستفنتشانيا» بأنني لم ألحق بباخرة «بيكال»، وهكذا كان عليّ أن أعبر بحيرة بيكال يوم الجمعة بدلاً من الثلاثاء، وحينها لن يكون أمامي سوى باخرة «أمور» التي ستنطلق في الثلاثين من الشهر. لكنه القدر،

1- Chaise: الشيز، عربة خفيفة ذات عجلتين أو أربع. (هوامش الكتاب للمترجم)

الذي -غالباً- ما يمارس معنا ألاعيب تفوق قدرتنا على التوقُّع. ففي صباح الثلاثاء، خرجت في جولة على شاطئ بحيرة بيكال، وإذا بي أرى أمامي مدخنة باخرة صغيرة، والأدخنة تتصاعد منها. تساءلت عن وجهة هذه الباخرة، فأخبروني بأنها متوجِّهة إلى كليوفو «الجهة الأخرى من البحر»، فلقد استأجرها أحد التجار لنقل بضائعه عبر البحيرة.

وأضافوا: نحن أيضاً نرغب في عبور «البحر» والذهاب إلى محطة سكك حديد بويارسكايا. واستفسرت منهم عن المسافة بين كليوفو وبويارسكايا. فأخبروني أنها حوالي 27 فرستاً[1]. وعدت مسرعاً إلى رفاقي، وتوسَّلت إليهم أن يقبلوا بمخاطرة الذهاب إلى كليوفو. وأقول «مخاطرة» لأن الذهاب إلى كليوفو - حيث لا شيء هناك سوى ميناء وكوخ لحارس- سيجعلنا نواجه خطر عدم العثور على خيول، وأن نضطر للبقاء في كليوفو، ونتأخر عن موعد القطار الذي سينطلق يوم الجمعة، وبالنسبة لنا هذا أسوأ من موت «إيجور»، لأننا سنضطرّ للانتظار إلى الثلاثاء. ووافق رفاقي. وتشاركنا جميعنا في حزم أمتعتنا، وبكل بهجة ركبنا الباخرة، وتوجّهنا مباشرة إلى البار، وطلبنا أطباق شوربة: طبق شوربة بحق الرب!، نصف مملكتي لقاء طبق شوربة!. كان البار كريهاً وضيّقاً للغاية، لكن الطاهي، جريجوري إيفانيتش، والذي سبق له أن عمل خادماً منزلياً في فورنيز، كان في قمة أدائه المهني. قَدَّم لنا طعاماً شهيّاً للغاية. وكان الطقس مستقرّاً ومشمساً. وكان لصفحة مياه بحيرة بيكال لون التركواز، كانت أكثر شفافية من مياه البحر الميت. ويقولون إنه، في المواضع العميقة منها، بوسع المرء أن يرى القاع على مبعدة فرست واحد؛ ولقد رأيت أنا نفسي مثل ذلك العمق، حيث الصخور والجبال تنعكس بلون هو مزيج من التركواز والأزرق، مما جعلني أشعر بقشعريرة تسري في جسدي كله.

1- Verst: الفرست، مقياس روسي للمسافة يعادل 3500 قدم.

كانت رحلتنا عبر بحيرة بيكال رحلة رائعة للغاية. ولن أنساها ما حييت.

لكنني سأخبرك بشيء غير لطيف فيها؛ لقد سافرنا في الدرجة الثالثة، وكان السطح بكامله ممتلئاً بالخيول، كانت خيولاً برّية هائجة طوال الوقت. ولقد أضفت هذه الخيول مسحة خاصة على عبورنا البحيرة: فلقد بدا الأمر كما لو كنا في باخرة لصوص. وعند الوصول إلى كليوفو، قام الحارس بنقل أمتعتنا إلى محطة السكك الحديدية، قاد هو الكارة[1]، وسرنا نحن بمحاذاة الشاطئ الفاتن. وكم كان ليفيتان أحمق لأنه لم يرافقني. كانت الطريق تمرّ بالغابة: إلى اليمين كانت أشجار الغابة تصعد التلال، وإلى اليسار كانت تهبط باتجاه البحيرة. يالها من وهاد وجُرُف شديدة الانحدار! كم كانت ألوان بحيرة بيكال رقيقة ودافئة! والشيء بالشيء يُذكر، كانت دافئة للغاية. وبعد أن مشيت لمسافة 8 فرسات، وصلنا إلى محطة ميشكان Myskan، حيث قام الموظف الحكومي كياهتان، الذي كان يستعدّ للسفر هو الآخر، بالترحيب بنا، وقَدَّم لنا شاياً رائعاً،

كذلك وجدنا هناك الخيول التي ستنقلنا إلى بويارسكايا، ونتيجة لذلك انطلقنا الخميس بدلاً من الجمعة، مما منحنا تقدُّماً 24 ساعة على موعد نقل الخيول من المحطة. وانطلقنا بأقصى سرعة ممكنة، يحدونا أمل واهٍ بأن نصل إلى سريتينشك بحلول اليوم الحادي والعشرين. وسأخبرك عند لقائنا بأمر رحلتي بمحاذاة جرف سيلينجا، وعبر ترانسبياكاليا.

والآن، سأقول -فقط- إن تلك السيلينجا كانت بمثابة حالة وحدة مستمرّة، أما في ترانسبياكاليا فلقد وجدت كل ما رغبت فيه: القوقاز، وادي نهر بسيول، وضاحية زفينيجورود، ونهر الدون. وخلال يوم من

1- Cart : الكارة، عربة بدولابين يجرها حصان، وتستخدم في نقل البضائع.

انطلاق الخيول عبر القوقاز، تصل مساءً إلى سهوب نهر الدون، وفي الصباح، تستيقظ بعد غفوة على ريف بولتافا. وهكذا على امتداد آلاف الفرسات.

ومررنا، كذلك، بفيرهنيودنيسك، وهي قرية صغيرة جميلة، وتيكيتا البائسة، التي تشبه سومي. وبصراحة لم يكن لدينا وقت للتفكير في النوم أو طعام العشاء. على إيقاع حوافر الخيول لم نكن لنفكِّر سوى في إمكانية أن نحصل على خيول عند وصولنا إلى المحطة التالية، وقد نعلق لخمس أو ست ساعات. لقد قطعنا مئتي فرست في أربع وعشرين ساعة، وأعتقد أنه ليس بوسع أحد أن يفعل أفضل من ذلك في صيف كهذا.

استبدَّ بنا الإرهاق والخمول؛ فلقد بلغت درجة الحرارة حدّاً مخيفاً عند منتصف النهار، بينما، في الليل، كان الجو بارداً للغاية لدرجة أنني اضطررت لارتداء معطفي الجلدي فوق ما أرتديه من ملابس. وذات ليلة شديدة البرودة اضطررت لارتداء معطفي المصنوع من فرو الماعز. ورغم ذلك أكملنا طريقنا، ووصلنا إلى سرايتينيشك قبل ساعة من إقلاع الباخرة، ونقدنا السائقين من المحطّتين السابقتين، روبية لكل منهما.

وهكذا انتهت رحلتي بالخيول. ولقد استمرّت شهرين (انطلقت في 21 أبريل). وذلك إذا استبعدنا الوقت المنقضي في القطار والباخرة، والأيام الثلاثة التي قضيناها في إيكاترينبرج، والأسبوع الذي قضيناه في تومسك، واليوم الذي قضيناه في كراسنويارسك، والأسبوع في إركوتشك، ويومين على شواطئ بحيرة بيكال، الأيام التي ضاعت هباء في انتظار أن تعبر القوارب الفيضانات، بوسعك أن تقدّري السرعة التي انطلقنا بها. كانت رحلتي ناجحة للغاية، وأتمناها للجميع. فلم أمرض، ولم أفقد من أمتعتي الكثيرة سوى شفرة شحذ الأقلام، وحزام وبرطمان

صغير به مرهم الكاربوليك. نقودي لم تُمَسّ. وليس بالأمر المعتاد أن يسافر المرء آلاف الفرسات وهو بخير حال.

لقد أصبحت معتاداً -للغاية- على صوت العجلات، لدرجة تجعلني مندهشاً من نفسي، لا أصدق أنني لست في «شيز»، وأنني لم أسمع الأجراس وهي تُقرع. وبدا غريباً أنني عندما آوي إلى الفراش أستطيع أن أُمدِّد ساقيَّ على آخرهما، من الغريب كذلك أن وجهي ليس مغطّىً بالتراب. لكن الأغرب أن زجاجة براندي كوفشينيكوف التي أعطيتها لي لم تُكسر، ولم يزل البراندي بداخلها، كل قطرة منه. وأقسمت أنني لن أفتحها إلا على شاطئ الباسيفيك.

أبحرت على ظهر الباخرة شيلكا، عبر نهر أمور الذي يمرّ بـ«وكروفسكايا ستانيستا». لم يكن النهر أوسع من نهر البسيول، بل ربما أضيق. كان شاطئا النهر صخريّين: كانت هناك جُرَف شديدة الانحدار وأحراش. كان نهراً هائجاً للغاية... لقد جاهدنا لنتجنّب أن نعلق في مستنقع، أو تصطدم دفّتنا بالشاطئ؛ فغالباً ما يحدث هذا للبواخر ومراكب نقل البضائع عندما تكون مسرعة. كم كان ذلك خانقاً! وبالكاد وصلنا إلى أوست كارا، حيث تَمَّ إنزال خمسة أو ستة مجرمين، للعمل بالمناجم، أو ليودَعوا في السجن.

أمس، وصلنا إلى نرتتشينسك. لم يكن في المدينة الصغيرة شيء يُذكر، لكن بوسع المرء أن يعيش فيها.

لكن، كيف حالكم أيها السيدات والسادة؟ انقطعت أخباركم عني. فهل بوسع كل منكم أن يُغَرَّم ببنسين ليرسل لي برقية.

ستبقى الباخرة في جوربيتسا هذه الليلة. والليالي هنا ضبابية، مما يجعل الإبحار خطيراً، وسأرسل لكم هذه الرسالة من جوربيتسا.

أركب الآن في الدرجة الأولى، لأن رفاقي في الدرجة الثانية، ورغبت في الابتعاد عنهم. فلقد كنا معاً (ثلاثة في عربة شيز)، ونمنا معاً، لقد مَلَّ كل منا من الآخر، خاصة أنا. أعتذر لرداءة خطّي، ويرجع ذلك إلى اهتزازات الباخرة التي تجعل الكتابة صعبة للغاية.

ولهذا توقّفت عن الكتابة، وتوجّهت إلى حجرة ضابطَي الباخرة، وشربت شاياً. كانا كلاهما قد حظي بفترة نوم طويلة؛ مما جعلهما في مزاج معتدل للغاية. وكان أحدهما، الضابط «ن» (كان لكنيته وقع سيء على أذني)، ضابطاً في سلاح المشاة، وكان طويل القامة، قوي البنية، يتمتّع بصوت جهوري، وكان متفاخراً تيّاهاً بنفسه، يغنّي أغنيات من جميع الأوبرات، لكن، لم تكن لديه أذن موسيقية، وكان رفيقاً غير محظوظ، بدّد كل ماله على نفقات أسفاره، وكان يحفظ كل أعمال مياكوفسكي عن ظهر قلب، سيّء التنشئة ومتحرِّر للغاية، ويثرثر لدرجة تدفع من ينصت إليه إلى الغثيان. وهو، مثلي، مغرم بالحديث عن أعمامه وعمّاته.

أما الضابط الآخر، «م»، فهو جغرافي، مهذّب، متواضع، ومتعلِّم بكل معنى الكلمة. ولولا وجود «ن»، لكنت مستعداً للسفر ملايين الفرسات دون ضجر. لكن بصحبة «ن»، الذي يقحم نفسه في كل حديث، أصبح الآخر مضجراً لي أيضاً.. أظن أننا وصلنا جوربيتسا.

غداً سأعدّ لكم صيغة البرقية التي أريدكم أن ترسلوها إليَّ في سَخالين. وسأحاول أن أصوغ كل ما أريد معرفته عنكم فيما لا يزيد عن ثلاثين كلمة، ويجب عليكم أن تحاولوا الالتزام بالنموذج.

يالها من ذبابة خيل، لا تتوقَّف عن القرص!.

سَخالين، 11 يوليو 1890

وصلت بسلام، مكتب تلغراف سَخالين

تشيخوف

سَخالين، 27 سبتمبر 1890

حسناً. سأصل قريباً.

تشيخوف



بفجينيـــا ياكوفليفنـــا مـــوروزوف (1835 – 1919): حملـت اســـــم «تشـيخوف» بعـد زواجهــا. كان لهــا دور مؤثِّــر فــي تنشـئة تشــيخوف. وورث عنهــا الحساســية والطبــع الليِّـــن.

سَخالين، 6 أكتوبر 1890

خالص التحية يا أمي الغالية!

أكتب لك هذه الرسالة -تقريباً- في ليلة مغادرتي روسيا. يومياً نتوقّع وصول باخرة من أسطول المتطوِّعين، ونتعلَّق بآمال أنها لن تتأخَّر عن العاشر من شهر أكتوبر. أرسل هذه الرسالة إلى اليابان، ومنها سيتمّ إرسالها إلى شنغهاي أو أميركا.

أعيش الآن عند محطّة كورساكوفو، حيث لا يوجد مكتب تلغراف أو مكتب بريد، والتي لا تصلها سفن إلا مرة كل 14 يوماً. أمس وصلت باخرة، وأحضرت لي من الشمال رزمة من الرسائل والبرقيات. ومن الرسائل عرفت أن ماشا معجبة بالكريميا Crimea، وأعتقد أنها ستُعجب بالقوقاز أكثر..

ياللغرابة! عندما تكون في سَخالين، يكون الطقس بارداً وممطراً، بينما منذ حضوري إلى اليوم كان الطقس دافئاً وجميلاً: كان بَرَد طفيف يتساقط في الصباحات، وهناك ثلج أبيض اللون فوق أحد الجبال، لكن الأرض لا تزال خضراء، والأوراق لم تسقط، وجميع النباتات نضرة، كما هي الحال في الريف خلال شهر مايو من فصل الصيف. هذه هي سَخالين!.

عند منتصف ليل أمس، سمعت هدير الباخرة. وقفز الجميع من مخادعهم يتصايحون مبتهجين: الباخرة وصلت!. ارتدينا ملابسنا وخرجنا نحمل المصابيح الغازية متوجِّهين إلى الميناء، حدّقنا في المدى،

كانت هناك باخرة بالفعل.... وأجمعت غالبية الأصوات أنها الباخرة بطرسبرج، التي سأستقلّها إلى روسيا. غمرتني البهجة. صعدنا على متن

القارب، وجدَّفنا باتجاه الباخرة. وداوَمْنا على التجديف حتى تبدّى لنا، في الضباب الهيكل الأسود للباخرة. وصاح أحدنا بصوت مرتفع يشبه صهيل الحصان، متسائلاً عن اسم الباخرة. وجاءتنا الإجابة: «البيكال». اللعنة! يالها من خيبة أمل! مشتاق للعودة إلى موطني، ولم تعد بي رغبة للاستمرار في سَخالين.

هنا، وطوال الشهور الثلاثة الأخيرة لم أرَ سوى مجرمين أو أشخاص لا يتحدّثون إلا عن عقوبات الاسترقاق، والجَلْد، الإدانة بالسجن. أجواء محبطة. كم أتوق إلى السفر سريعاً إلى اليابان ومنها إلى الهند!.

أنا بخير حال، باستثناء ومضات أمام عيني والتي تتكرَّر كثيراً الآن، وبعدها أصاب، دائماً، بصداع شديد. تكرَّرت الومضات أمام عيني أمس واليوم، وهكذا أكتب هذه الكلمات وأنا مصاب بصداع شديد وخدر بكامل جسدي.

وفي هذه المحطّة، يعيش الجنرال الياباني كوزيه سان وبرفقته معاوناه، وهما صديقان حميمان لي. إنهم يعيشون مثل الأوروبيين. اليوم زارهم موظفون في السلطة المحلية، ليعرضوا عليهم الزخارف التي سيقدِّمونها هدايا لهم، أما أنا فلقد تعايشت مع صداعي وشربت الشمبانيا.

منذ كنت في الجنوب اضطررت ثلاث مرات إلى أن أذهب إلى ناي ريس حيث تتكسَّر موجات المحيط الحقيقية على شواطئها. انظرْ إلى الخارطة وستشاهد عندئذ، عند الساحل الجنوبي، تلك المنطقة الفقيرة والموحشة المعروفة باسم «ناي ريس». وحاصرت الأمواج قارباً على متنه ستة صيادي الحيتان من الأميركيين، الذين تحطّمت سفينتهم قبالة شاطئ سَخالين، والآن يعيشون في المحطة ويتجوّلون مكتئبين في شوارع المدينة. إنهم بانتظار الباخرة بطرسبرج، وسيبحرون برفقتي.

لن أُحضر لك معاطف الفرو، لأنه لا يوجد أي منها في سَخالين.
أتمنّى لكم موفور الصحة، ولترعاكم السماء.
أحضرت لكم هدايا. ولقد انحسر وباء الكوليرا في فالديفوستوك، واليابان.

2

إلى أخته ماريا بافلوفيتش

باخرة «ألكساندر نيفسكي «23 أبريل 1890، في الصباح الباكر

عزيزتي تونجيوزيز[1]

هل أمطرت عند عودة إيفان من الدير؟ في ياروسلافا انهمرت أمطار غزيرة، لدرجة دفعتني أن ألفّ نفسي بخيتون[2] من الجلد. وكان انطباعي الأول أن نهر الفولجا قد سممته الأمطار، وبنوافذ القمرة التي سالت عليها الدموع، وبالإفرازات المتدفِّقة من أنف «ج» والذي جاء للقائي عند المحطة. تحت الأمطار تبدو ياروسلافا مثل زيفينجورود، وتذكِّرني كنائسها بدير برفينيسكي، فهناك الكثير من اللوحات الإرشادية لمن

1- تونجيوزيز، في الروسية، خنزير بري.
2- Chiton: خيتون، ثوب إغريقي للرجال والنساء.

يجهلون القراء والكتابة، وهو دائماً موحل، وهناك غربان كثيرة برؤوس كبيرة تتبختر على الرصيف.

وفي الباخرة، قمت بأوّل واجب عليّ تجاه موهبتي؛ استغرقت في النوم. وعندما استيقظت تأمّلت الشمس. لم يكن نهر الفولجا سيّئاً : مروج خضراء وسط المياه، والأديرة السابحة في ضوء الشمس، والكنائس البيضاء، المدى المترامي لا مثيل له، فأينما ينظر المرء فثمة مكان رائع للجلوس وصيد السمك. بينما السيدات المرافقات[1] يتجوّلن برشاقة فوق العشب الأخضر بمحاذاة النهر.

ومن حين إلى آخر من الممكن سماع صوت نفير الراعي. وتحلِّق النوارس فوق المياه مثل دريشكا الصغيرة.
أما الباخرة فلم تكن على المستوى المأمول...
كونداسوفا معي على الباخرة نفسها. ولا أعرف وجهتها أو غرضها من السفر. وعندما سألتها عن ذلك، سارعت بقول أشياء غامضة، تلميحية، أكثر منها توضيحية، عن شخص ما واعدها على اللقاء في وهد بالقرب من كنيشما، ثمّ انخرطت في ضحكة مجلجلة هستيرية، وبدأت تدقّ الأرض بقدميها، أو تلكز بكوعها دون ترتيب. وتجاوزنا كنيشما والوهد، ولم تغادر الباخرة، مما أسعدني كثيراً. وبالمناسبة، أمس رأيتها للمرة الأولى في حياتي وهي تأكل. لم تكن تأكل أقلّ من الآخرين، لكنها كانت تأكل بطريقة ميكانيكية كما لو كانت تطحن الشوفان.

كوستروما مدينة جميلة. ورأيت طرح النهر حيث اعتاد أن يعيش ليفيتان الكسول. وصلت إلى كنيشما، وهناك تجوّلت على الجادة، وتابعت

1- Class Ladies: مرافقات يعملن بالمدارس، ويوكل إليهن الجلوس بالفصول بينما الفتيات يتلقين التعليمات من المدرس.

العشاق المحليين. عندئذ توجّهت إلى الصيدلية لشراء كمية من أملاح البرثوليت لمداواة لساني، الذي كان جافاً مثل الجلد بعد الدواء الذي تناولته.

وعندما رأى الصيدلاني أولجا بتروفنا تنازعه انفعالان: البهجة، والتشوّش، فلقد كانت كما هي دون تغيير. يعرف أحدهما الآخر، وخمّنت من الحديث الذي دار بينهما أنهما سبق وتجوّلا معاً أكثر من مرة حول الوهاد بالقرب من كنيشما.

الباخرة باردة ومعتمة نوعاً ما، لكنها لطيفة إجمالاً. وتنطلق صافرتها كل دقيقة، صافرة تجمع بين نهيق حمار وقيثارة عوليس[1]. في غضون خمس أو ست ساعات سنصل إلى نزني. الشمس مشرقة. الليلة الماضية نمت مثل الفنانين. نقودي بأمان، لأنني مقتصد في الإنفاق على الطعام.

كم هي جميلة زوارق قطر البواخر،فكل واحد منها يجرّ خلفه من أربع إلى خمس بواخر، وتبدو مثل مفكّر ألمعي شاب يحاول أن يحلِّق بعيداً، بينما تتعلّق، بأطراف معطفه، زوجته [2] وحماته وأخت زوجته وجدّتها.

الشمس محتجبة خلف السحب، والسماء ملبَّدة بالغيوم، ونهر الفولجا الواسع يبدو كئيباً. عرفت الآن لماذا لا يعيش ليفيتان عند نهر الفولجا، فهو يلقي بكآبة جمّة على الروح، ورغم ذلك فليس سيّئاً أن يمتلك المرء منزلاً على ضفّتيه.

1- Aeolian harp: قيثارة عوليس، قيثارة الريح.

2- Plebeian: استخدم هذه الكلمة لوصف الزوجة، ومعناها أحد العامة في روما القديمة، وهي تحيل إلى زوجة أرسطو المشهورة بأنها كانت محبِطة لزوجها الفيلسوف اليوناني العظيم.

إذا كان النادل قادراً على السير سأطلب منه بعض القهوة، أما، والحال كذلك، فليس أمامي سوى أن أشرب ماء دون أي نكهة.

تحياتي لكل من ماريوشكا وأولجا [1].

حسناً، اعتنيا بنفسيكما. سأداوم على الكتابة لكم بانتظام.

المسافر الضجر عبر نهر الفولجا،

الإنسان

تشيخوف

1- خادمتا عائلة تشيخوف.



ماريا بافلوفيتش تشيخوف (1863 – 1957): شقيقة تشيخوف. معلِّمة وفنّانة تشكيلية. لها الفضل في جمع أعمال تشيخوف بعد وفاته. وأشرفت حتى وفاتها على متحف تشيخوف بمنزله في يالطا.

من الباخرة، مساءً، 24 أبريل 1890

عزيزتي تونجيوزيز

أطفو الآن فوق مياه نهر كاما، لكنني لا أستطيع تحديد موقعي بدقة، أظن أنني بالقرب من تخيستوبول. كذلك لا أستطيع أن أمتدح جمال المشهد، لأن الطقس بارد للغاية، ولن تزهر أشجار البتولا، فقط، ما زالت هناك مساحات صغيرة من الثلج هنا وهناك، وثمّة قطع من الثلج تطفو على سطح الماء من حين آخر، المشهد موحش.

أجلس في القمرة حيث يجلس الجميع من كل صنف ولون إلى المائدة، وينصتون إلى النقاش الدائر، متسائلين: ألم يحن الوقت لتناول الشاي؟ ولو كان الأمر بيدي فلن أفعل سوى تناول الطعام طوال النهار، ولأنني لا أملك ما يكفي من مال لتناول الطعام طوال النهار، أمضي الوقت في النوم والنوم.لا أصعد إلى سطح الباخرة، فالجو هناك بارد. ليلاً تتساقط الأمطار، ونهاراً تهبّ ريح شديدة.

أوه، الكافيار! لا أتوقَّف عن تناوله، ولا أشبع منه.

للأسف لم أحضر معي كيساً صغيراً من الشاي وآخر من السكر. وأنا الآن مجبر على طلب كوب شاي مرة بعد أخرى، وهذا أمر مضجر ومكلف. اليوم نويت أن أشتري بعض الشاي والسكر من كازان، لكنني غفوت رغماً عني.

يااه يا أمي! أظننا سنتوقّف لأربع وعشرين ساعة في إيكاترينبرج، وسأمرّ لرؤية بعض الأقارب. ربما تلين قلوبهم، ويقرضونني ثلاث روبيات

وأوقية شاي.

ومن المناقشة التي أنصت إليها الآن، أخمِّن أن أعضاء محكمة يسافرون معي. إنهم ليسوا أشخاصاً بارعين. لكن التجار، الذين يحنثون بوعودهم من حين لآخر، يبدون أذكياء. بدأت أتعرّف بفاحشي الثراء.

سمك الحُفيش[1] أرخص من الفطر، لكن سرعان ما يزهدهما المرء. ماذا لديّ بعد لأكتب عنه؟ لا شيء... هناك جنرال، نحيل القوام وسيم الملامح. وهو دائم الانتقال من القمرة إلى سطح الباخرة، وبالعكس، وهو يرسل صورته الفوتوغرافية إلى مكان ما، ربما إلى نادسون، ويحاول، بهكذا طريقة، أن يُعرِّف الآخرين أنه كاتب. اليوم كان كذبه مفضوحاً وهو يخبر سيدة بأن «سافورين» نشرت له كتاباً، وبالطبع أظهرت دهشتي وتقديري لذلك.

ما زالت نقودي على حالها، باستثناء ما أنفقه على الطعام. فالأنذال لن يطعمونني مجّاناً.

لست مبتهجاً أو ضجراً، لكن هناك خدراً يسري بروحي. أرغب في الجلوس دون أن أتحرّك أو أنطق. اليوم، على سبيل المثال، لم أنطق سوى خمس كلمات. ذلك ليس صحيحاً، فلقد تحدّثت إلى قسّ على سطح السفينة.

الآن بدأ مرورنا عبر أراضي السكان المحلّيين، فهناك كثير من التتار: إنهم أشخاص محترمون، وسلوكهم راقٍ.

1- Starlet: الحُفيش، نوع صغير من سمك الحفش يكثر في بحر قزوين وأنهاره، ويُصنع الكافيار من بطارخه.

أتوسَّل إليكما، أمي وأبي، ألّا تقلقا وألّا تتخيّلا أخطاراً لا وجود لها.

اعذروني لأنني ذكرت الطعام كثيراً في رسالتي. فإذا لم أكتب عن الطعام، كنت سأكتب عن برودة الطقس، فليس لديّ موضوعات أخرى.

29 أبريل، 1890

عزيزتي تونجيوزيز

نهر كاما باهت للغاية. ولإدراك جماله، يجب أن يكون المرء من السكّان المحلّيين، ويجلس ساكناً على سطح مركب لنقل البضائع إلى جوار برميل مليء بالبترول، أو كيس مليء بالسمك المجفّف، ولا يتوقّف عن عبّ الشراب من الزجاجة. ضفّتا النهر جرداوان، والأشجار عارية، والأرض لونها بني كالح، وهناك مساحات متناثرة مغطّاة بالثلج، بالإضافة إلى تلك الريح التي لا يستطيع حتى الشيطان ذاته أن يتسبَّب في هبوبها بمثل هذه الشدة والبرودة.

وعندما تهبّ الرياح الباردة، وتحرِّك المياه، تلك المياه التي أصبحت بعد الفيضان بنّيّة بلون الطمي، يشعر المرء بالبرودة والضجر والبؤس، وألحان الكونسرتينا[1] تبدو حزينة، وهناك أشخاص يقفون متصلّبين على سطوح سفن نقل البضائع ويرتدون معاطف من جلود الماعز كأنهم في طقس جنائزي لا ينتهي. رمادية هي القرى على جانبي نهر كاما، وسيظن المرء أن سكّان هذه القرى لابدّ أنهم يعملون في تصنيع السُّحب، الضجر، وتنظيف الأسوار، وإزالة الوحل من الطرقات، ولا شيء سواها. وتزدحم محطّات التوقُّف بالسكان المتعلِّمين الذين يمثِّل لهم توقُّف باخرة حدثاً جديراً بالاهتمام.. ومن مظهرهم يستطيع المرء أن يقدِّر أن دخلهم لا يتجاوز 35 روبيلاً، وأن الجميع لديهم مرض ما.

سبق أن ذكرت لك أن هناك رجال قانون على متن الباخرة: رئيس محكمة،

1- Concertina: كونسرتينا، نوع من آلات الأكورديون.

قاض، والمدِّعي العام. رئيس المحكمة عجوز ألماني موفور الصحة وودود، مسيحي أرثوذوكسي، ورع، ومن الجلي أنه نذر نفسه للجنس. أما القاضي، فهو رجل عجوز يشبه العزيز نيكولاي، يهوى الرسم، يسير منحنياً، يسعل، ومغرم بالموضوعات ذات الطابع الفكاهي المرح. أما المدّعي العام فهو رجل في الثالثة والأربعين، ناقم على الحياة، ليبرالي، شكوكي، ورفيق جيد للغاية. وطوال الرحلة انشغل ثلاثتهم بتناول الطعام، يناقشون موضوعات مهمّة للغاية ويأكلون، يقرأون ويأكلون. وهناك مكتبة على متن الباخرة، ورأيت المدّعي العام وهو يقرأ كتابي «In the Twilight».. وبدأوا الكلام عني. لكن مامين سيبيرياك، مؤلِّف «جبال الأورال - Urals»، هو المؤلِّف الأكثر شهرة في هذه المناطق. إنه يحظى باهتمام يفوق تولستوي.

مضى عامان ونصف العام وأنا مبحر باتجاه بيرم، أو هكذا يبدو الأمر لي. وصلنا هناك حوالي الساعة الثانية ليلاً. والقطار يغادر في السادسة مساءً. لم يكن أمامي سوى الانتظار. أمطرت. المطر، البرد، الوحل... برررر!. إن خطّ سكك حديد أورالسكاي خطّ متميِّز، ويرجع ذلك إلى وفرة أشباه رجال الأعمال هنا، والمصانع، والمناجم، وغيرها من الأشياء المشابهة، التي تعطي قيمة للوقت.

صباح أمس استيقظت وتطلعت من نافذة عربة القطار، شعرت بكراهية شديدة للطبيعة: كانت الأرض بيضاء اللون، والأشجار مغطّاة بالصقيع، وريح شديدة البرودة تهبّ على القطار بانتظام. أليس ذلك مقزِّزاً؟ أليس كريهاً؟ لم أحضر معي الكَلُوش[1]، فارتديت حذائي، البوت الضخم، خلال المسافة إلى حجرة الطعام لأتناول القهوة، وبدا الأمر وكأن منطقة الأورال بكاملها تفوح منها رائحة القطران. وعندما وصلنا إلى إيكاترينبرج

1- Galosh: الكَلُوش، حذاء فوقي مطاطي يُلبس فوق الحذاء العادي.

بدأ هطول الأمطار، والثلج، والبَرَد. ارتديت معطفي الجلدي. كانت عربات الكاب[1] شيء لا يُحتمل؛ فهي حقيرة ومُتَّسخة وغير مُحكَمة؛ مما يسمح بتسرُّب مياه الأمطار إلى داخلها، ولا توجد بها وسائد زنبركية تمتصّ الصدمات، وللحصان الذي يجرّها أربعة سيقان مُتباعد أحدها عن الآخر، وحوافر ضخمة، وظهر نحيل... وعربات الدّرشِكيّة، هنا، ليست سوى محاكاة ساخرة لعربات البريتشكا التي لدينا، تشبهها بالإضافة إلى وجود سقف لها من قماش رثّ ومتهرّئ، ولا شيء أكثر. وكلما حاولت تحرّي الدقة في وصف سائق عربة الكاب وعربته، هنا، ستكون الصورة أكثر كاريكاتيرية. إنهم لا يقودون العربات في منتصف الطريق، حيث الأرض غير ممهّدة نوعاً ما، بل بالقرب من قنوات التصريف على جانبي الطريق حيث تكون الأرض موحلة وممهَّدة. جميع سائقي عربات الكاب يشبهون دوبروليبوف.

في روسيا جميع المدن متشابهة. إيكاترينبرج مشابهة تماماً لبيرم وطولا. إن صوت النواقيس مهيب وناعم. توقّفت عند الفندق الأميركي (ليست جميعها سيئة)، وبمجرّد وصولي أرسلت برقية إلى (أ.م.س A. M. S) أخبره أنني قرّرت البقاء في حجرتي بالفندق مدة يومين.

إن المُقيمين في هذا الفندق ينقلون للقادم الجديد شعوراً أقرب ما يكون إلى الرعب. فجميعهم بحواجب سميكة، فكوك ضخمة، وأكتاف عريضة، وقبضات ضخمة وعيون صغيرة للغاية. إنهم مولودون في مصانع الصلب المحلّيّة، حيث استقبلهم، عند مولدهم، الميكانيكيون بدلاً من طبيب التوليد. ويأتي إلى حجرتك شخص ما بالسّماوَر[2] أو بزجاجة مياه، بينما تتوقّع أنه سيقتلك في أية لحظة. أتنحّى جانباً. وهذا الصباح أتى شخص

1- Cab: عربة أجرة يجرها حصان واحد.
2- Samovar: السّماوَر، إناء لإعداد الشاي.

من هؤلاء، كثيف الحاجبين، ضخم الفكين، هائل الجسد يكاد يلامس السقف، ويبلغ عرض كتفيه سبعة أقدام، ويرتدي معطفاً من الفرو كذلك.

حسناً، أظن أن هذا الشخص سيقتلني. بدا كما لو كان قريبنا «A. M. S»، وبدأنا الحديث. إنه عضو في المجلس المحلّي Zemstvo، ويدير طاحونة ابن عمه، التي تتمّ إنارتها بالكهرباء، وهو رئيس تحرير صحيفة «إيكاترينبيرج» الأسبوعية الخاضعة لرقابة رئيس البوليس «بارون تايوب»، وهو متزوِّج ولديه طفلان، ويزداد ثراء وسمنة وتقدُّماً في العمر، ويعيش عيشة رغدة. وقال إنه لا وقت لديه ليشعر بالضجر. نصحني بزيارة المتحف والمصانع والمناجم. وشكرت له نصيحته. ودعاني لشرب الشاي غداً مساءً، ودعوته ليتناول معي طعام الغداء أو العشاء، لكنه لم يدعُني للعشاء، ولم يلحّ في دعوتي لزيارته في بيته. ومن كل ما سبق، ربما تستنتجين -يا أمي- أن الأقارب لم يرقّوا لحالي؛ فالأقارب صنف لا أعوِّل عليه كثيراً.

هناك ثلج بالشارع، وكنت قد أنزلت الستائر عن عمد حتى أتجنَّب رؤية المعالم الأسيوية. وأجلس في انتظار رَدّ من تايومين على برقيتي. كنت قد أرسلت لهم البرقية التالية: «تايومين. خطّ باخرة كورباتوف. ردّ مدفوع. أرجو إعلامي بموعد إبحار باخرة الركاب من تومسك». وبناءً على ردِّهم سيتحدَّد ما إذا كنت سأسافر بالباخرة أم بالعربات التي تجرّها الخيول لمسافة 1500 فَرسَت، من الثلوج الذائبة والأوحال.

طوال الليل هناك طرق دائم على ألواح الصلب في كل مكان هنا. ويحتاج المرء رأساً من الصلب حتى لا يُصاب بالجنون من الدويّ المتواصل. اليوم، حاولت أن أعدّ لنفسي قهوة. وجاءت النتيجة بشعة للغاية. لكنني شربتها رغم ذلك. فحصت خمس ملاءات، خاصة ملمس نسيجها، لكنني

لم أشترِ أياً منها. وسأذهب اليوم لشراء كَلُوش.

هل أنتظر رسالة منكم عند وصولي إلى إركوتسك؟

اطلبوا من ليكا ألّا تترك تلك الهوامش الكبيرة في رسائلها.

تشيخوف

قرية يار، 45 فرستاً من تومسك، 14 مايو 1890

أمّي العظيمة، ماشا الرائعة، حلوتي ميشا، وكل سكان بيتنا، عند وصولي إلى إيكاترينبرج، تسلمت رداً على برقيتي التي سبق وأرسلتها إلى تايومين. «أول باخرة إلى توسمك ستتحرّك في الثامن عشر من شهر مايو». ومعنى هذا أنه، سواء أرضيت أم أَبَيْت، سأضطرّ إلى استخدام الخيول في رحلتي. وهذا ما فعلته. غادرت تيامون في الثالث من مايو بعد قضاء يومين أو ثلاثة أيام في إيكاترينبرج؛ خصّصتها للعلاج من الكحّة والبواسير. وبالإضافة إلى خدمة النقل العام، بوسع المرء أن يستأجر سائقين خصوصيين لنقله إلى سيبريا، وكان هذا اختياري رغم أنه لا فارق بين الاثنين. فلقد وضعاني، أنا خادم الرب، في عربة شيز تشبه السلّة، وقادا الحصانين اللذين كانا يجرّان العربة، بينما أنا جالس في السلّة مثل سمكة ذهبية، ناظراً إلى عالم الربّ، لا أفكّر في شيء...

تلوح سهول سيبريا، كما أظن، عند نهاية إيكاترينبرج، والربّ وحده يعلم أين تنتهي، إنها تشبه سهوب[1] جنوب روسيا، باستثناء القليل من أجمات أشجار البتولا متناثرة هنا وهناك، وتلك الريح شديدة البرودة التي تلسع الوجنات. لم يكن الربيع قد بدأ بعد. ليس ثمّة خضرة على الإطلاق، كانت الأشجار عارية، والجليد لم يكن قد تلاشى من كل الأماكن. فهناك طبقة جليدية معتمة فوق سطوح البحيرات. في التاسع من مايو كان هناك ثلج صلب، واليوم، الرابع عشر، تساقط الثلج صانعاً طبقة بسمك ثلاث أو أربع بوصات. لا أحد يذكر الربيع باستثناء البَطّ. ياه، يالهذه المجموعات من البطّ! لم أشهد في حياتي مثل هذه الأعداد.

1- Steppe: سهب، سهل واسع خال من الشجر.

إنها تطير فوق الرؤوس، إنها تطير بالقرب من عربة الشيز، وتسبح في البحيرات والبرك. اختصاراً، لو معي بندقية من أردأ الأنواع، لاصطدت الآلاف منها في يوم واحد.

وبوسع المرء أن يسمع صيحات الإوز البري، فهناك أعداد كبيرة منه أيضاً. وكثيراً ما يصادف المرء سرباً من الكركي أو البجع، وكذلك طيور الشنقب[1] ودجاج الأرض، وهو يرفرف بأجنحته بين أجمات أشجار البتولا. وهنا لا يتمّ اصطياد أو أكل الأرانب البرية التي تقف منتصبة على أرجلها الخلفية مشرعة آذانها، وهي تراقب العابرين بنظرات فضولية دون أدنى توجُّس. كثيراً ما تشاهدها وهي تجري عبر الطريق، ولا يُعَدّ ذلك، هنا، بمثابة نذير شؤم.

الجو بارد... ارتديت معطفي الفرو. جسدي بخير، لكن قدميّ متجمِّدتان. لففتهما بالمعطف الجلدي، لكن دون فائدة... ارتديت بنطالين أحدهما فوق الآخر. وفي أثناء تقدُّمنا في الطريق، تتراءى لنا سريعاً أعمدة التلغراف وبرك المياه وأجمات أشجار البتولا. مررنا ببعض المهاجرين، ثم بسجن للترحيل... قابلنا مسافرين سيراً على الأقدام يحملون القدور على ظهورهم، هؤلاء الذين يجوبون سهول سيبريا من أقصاها إلى أقصاها دون مانع أو رادع. ذات مرة قتلوا امرأة عجوزاً ليسرقوا تنّورتها التحتانية ليلفّوا بها أرجلهم، ومرة أخرى سرقوا الصفيحة المعدنية التي تحدِّد المسافة المتبقِّية، وربّما في هذا فائدة ما، وفي مرة أخرى سيحطِّمون رأس أحد المتسوِّلين، أو يفقأون عيني أحد الإخوة المنفيين، لكنهم -أبداً- لا يتعرَّضون للمسافرين.

وإجمالاً، السفر هنا آمن للغاية طالما الأمر يتعلّق باللصوص. ولا يتذكّر

1- Snipe: الشنقب، الجُهلول، الشكب، الباسكين، طائر طويل المنقار.

سائقو الحافلات العامّة أو السائقون الخصوصيون تعرُّض أي مسافر للسرقة. وعند الوصول إلى محطّة ما، تترك حاجياتك خارجها، وإذا استفسرت عن إمكانية تعرّضها للسرقة، يجيبونك بابتسامة أنه لا وجود للسرقة أو القتل على الطريق. وأعتقد أنني لو فقدت نقودي في المحطة أو في عربة الشيز، سيردّها إليّ السائق إذا وجدها، ولن يتفاخر لقيامه بهذا.

إجمالاً، الناس هنا طيّبون وعطوفون، ولديهم تقاليد رائعة. تتّسم حجراتهم ببساطة التأثيث وبالنظافة، مع مظاهر للرفاهية، الأسرّة ناعمة وليّنة، فالمراتب والوسائد الكبيرة محشوّة بالريش. والأرضيات إما مطلية أو مغطّاة ببُسط من الكتّان منزلية الصنع. وتفسير ذلك، بالطبع، أنهم يعيشون عيشة رغيدة، فكل عائلة تمتلك ستة عشر دسياتين (حوالي 48 أكراً[1]) من الأراضي الخصبة، وما تنتجه من قمح رائع. (ويكلف بود[2] دقيق القمح 30 كوبكاً[3])، لكن، لا يعيش جميعهم في رغد وبحبحوة. ولابد أن يفخر المرء بطريقتهم في الحياة.

وعند الدخول، ليلاً، حجرة نوم لهؤلاء الناس، لن تلتقط الأنف أية رائحة كريهة أو «رائحة روسية». حدثَ أن قامت امرأة عجوز بمسح ملعقة الشاي بتنورتها، لكنهم لا يدعونك لشرب الشاي دون أن يكون هناك مفرش على المائدة، ولا يقوم بعضهم بتنظيف رؤوس بعضهم الآخر في وجودك، ولا يضعون أصابعهم في كوب اللبن أو الماء في أثناء تقديمه لك، والآنية الفخارية نظيفة، والكفاس[4] رائق مثل البيرة، وحقيقة،

1- Acre: الأكر، مقياس للمساحة يساوي 480 ياردة مربعة، أو نحو 4000 متر مربع.
2- Pood: بُود، وحدة وزن روسية، تساوي 36 باوند.
3- Kopeck: وحدة نقد روسية، تساوي 1/ 100 من الروبل.
4- Kvass: نوع من الجعة يُصنع في أوروبا الشرقية.

هناك نظافة ليس بوسع صغار القوم الروس سوى أن يحلموا بها، رغم أنهم أنظف بكثير من كبار القوم!.

هنا يصنعون أشهى خبز، ولقد أكلت منه بنهم شديد في أول وجبة لي. كذلك فإن فطائر الفاكهة والفطائر المحلّاة والفطائر المقلية والملفوف الرائع، الذي يذكرني بحَلَق الملفوف الروسي صغير الحجم إسفنجي القوام، جميعها جيّدة للغاية هنا. أما ما دون ذلك فلا يتناسب مع المعدة الأوروبية. على سبيل المثال، في كل مكان تمَّت دعوتي لتناول «مرق البطّ»، وهو مُقزِّز للغاية،فهو سائل يبدو مثل الوحل السائل ببعض أجزاء من البط البري والبصل غير المطهي، تطفو على سطح المرق. وذات مرّة طلبت منهم أن يُعدّوا لي بعض المرق على اللحم، ويقلوا لي بعضاً من سمك الفرخ[1]. قدّموا لي مرقاً مالحاً للغاية، قذراً وبه قطع صلبة من الجلد بدلاً من اللحم، أما سمك الفرخ فقد تَمّ قليه دون تنظيفه من الحراشف. ويعدّون مرق الكرنب على اللحم المُملَّح، ويشوونه كذلك. وقدموا لي بعضاً من هذا السمك المملّح مشويّاً؛ وكان من أكثر الأشياء المقزِّزة التي تناولتها على الإطلاق، فبمجرَّد أن مضغته قمت ببصقه على الفور. أما الشاي الذي يشربونه فمذاقه ومظهره أقرب لخليط من أوراق المريمية والخنافس.

وبالمناسبة، اشتريت من إيكاتنبيرج ربع رطل من الشاي، وخمسة أرطال من السكر، وثلاث ليمونات. ولم يكن هذا الشاي كافياً، لكن ما من مكان آخر أشتري منه شاياً. ففي جميع هذه المدن المتواضعة، وحتى في الأماكن الحكومية، يشرب الجميع شاي البريك [2]، وحتى أفضل

1- Perch: الفَرخ، نوع من السمك النهري.

2- Tea brick: شاي صيني المنشأ، وهو عبارة عن قوالب من أوراق الشاي المفرومة بعد ضغطها.

محلّات البقالة هنا لا تبيع شاياً يزيد سعره على روبيل وخمسين كوبيكاً للرطل. ولم أجد أمامي سوى شراب المريمية المُخمَّر.

والمسافة التي تفصل بين محطة وأخرى تعتمد على المسافة بين أقرب قريتين، والتي تتراوح بين 20 و40 فرستاً. والقرى هنا كبيرة، ولا وجود للقرى الصغيرة. وهناك كنائس ومدارس في كل مكان، والأكواخ مصنوعة من الخشب، وبعضها من طابقين.

ومع المغيب، يبدأ الطريق والبُرَيكات[1] بالتجمّد، وليلاً يتساقط الثلج بانتظام، مما يجعل المرء يحتاج معطف فرو إضافياً.... ياله من طقس بارد! إنه أمر رهيب، حتى الوحل يتجمَّد في كتل. وترتجف الروح داخل المرء، لدرجة يشعر معها أنها على وشك مفارقة جسده... ومع اقتراب نهاية اليوم، يُستنفد المرء من شدة البرد، ومع اهتزاز النواقيس وتعالي أصواتها، يتوق المرء إلى الدفء والفراش. وخلال قيامهم بتبديل الخيول، أنتهز الفرصة وأتنحّى جانباً وأغفو في الحال، وبعد دقيقة، يأتي السائق ليجذبني من كُمّ ردائي وهو يقول: «انهض، يا صديقي، حان موعد الانطلاق». وفي المساء التالي، أُصبت بألم شديد في كعبيَّ. كان ألماً لا يُطاق. يبدو أنهما أصيبا بلسعة الثلج.

لا أستطيع أن أكتب المزيد. لقد وصل «الرئيس»، رئيس بوليس المقاطعة. وتعارفنا، وبدأنا تبادل الحديث. وداعاً إلى الغد.

1- Puddle: بريكة، بركة صغيرة بها ماء قذر ووحل.

تومسك، 16 مايو

يبدو أن حذائي (البوت) هو السبب، فهو ضيّق للغاية من الخلف. عزيزتي ميشا، متى يصبح عندك أطفال؟ ولا شك عندي في ذلك، أنصحك وأنصحهم بعدم شراء بضائع رخيصة الثمن. فالثمن المنخفض للبضائع الروسية علامة على رداءتها. وفي وضعي هذا، أؤكد لك أن السير بدون حذاء أفضل من ارتداء حذاء رخيص الثمن. تصوَّري ألمي المبرِّح! فأنا دائم الخروج من عربة الشيز، للجلوس على الأرض الرطبة وخلع حذائي لأُريح كعبيّ. وكم أشعر براحة بالغة عندما أضعهما في الثلج! ولم يكن أمامي سوى أن أشتري حذاء بوت من اللباد من «إيشيم»... وهكذا كنت أسير مرتدياً هذا الحذاء حتى بلِيَ من الوحل والرطوبة.

في الصباح، بين الخامسة والسادسة، نشرب الشاي في أحد الأكواخ. كم يصبح الشاي، خلال الرحلة، نعمة عظيمة! الآن، أدركت قيمته، وبدأت أشربه بضراوة يانوف نفسها. إنه يجعل الدفء يسري في البدن، ويذهب بالوسن، ومعه أتناول الكثير من الخبز، ففي غياب أنواع الطعام الأخرى، يتم تناول الخبز بكميات كبيرة للغاية، ولهذا السبب يتناول الفلاحون الكثير من الخبز والنشويات. نشرب الشاي، ونتبادل الحديث مع الفلاحات اللائي يتمتَّعن بالرقة ورهافة المشاعر والكدح، بالإضافة لكونهن أمّهات مخلصات وأكثر تحرُّراً من نظرائهن في روسيا الأوروبية، فأزواجهن لا يضربنهن، أو يوجِّهن الإهانات لهن، لأنهن في مثل طول وقوة ومهارة سادتهن وأزواجهن. إنهن يعملن في قيادة العربات عندما يكون أزواجهن غير موجودين، وكذلك هن يَهْوين المزاح.

لسن قاسيات مع أطفالهن، بل يدلِّلنهم بإفراط. فالأطفال ينامون في أَسِرّة

وثيرة كما يشاؤون، ويتناولون الطعام، ويشربون الشاي برفقة الرجال. ويعنِّفن الرجال عندما يسخرون من حنانهن. لا وجود للديفتريا «داء الخناق»، أو الجدري القاتل هنا، والغريب أن تلك الأمراض أقلّ وبائية هنا من أي مكان في العالم، فقط يتوفّى اثنان أو ثلاثة من جراء الإصابة بها، وينتهي الوباء. لا يوجد أطبّاء أو مستشفيات. والتطبيب هنا يقوم به معالجون قرويون. وهنا يتمّ اللجوء إلى التشريط وكؤوس الهواء بإفراط مُضرّ. فحصت حالة مريض يهودي مصاب بسرطان الكبد، وكانت حالة هذا اليهودي سيئة، يتنفّس بصعوبة بالغة، لكن ذلك لم يمنع المعالج القروي من إخضاعه لجلسات كؤوس الهواء اثنتي عشرة مرة.

وهذا مناسب لليهود، فهنا يفلحون الأرض، ويعملون كسائقين للمركبات البرية والبحرية، وبالتجارة، ويدعَون بالـ«الكريستياني». لأنهم شرعياً وفعلياً «كريستياني»[1]. ويحظون باحترام عالمي، وحسب «الرئيس» لا يتم استبعادهم عند اختيار شيخ القرية. ورأيت يهودياً نحيفاً يعبس مشمئزّاً، ويبصق عندما يحكي الرئيس قصصاً بذيئة: لأنها تؤذي روحه الطاهرة، وتقوم زوجته بإعداد مرق سمك رائع. وجاملتني زوجة اليهودي المصاب بالسرطان بأن قدَّمت لي الكافيار مع أشهى خبز أبيض.

ولا يُسمع هنا شيء عن الاستغلال من اليهود. وكذلك الحال بالنسبة للبولنديين. يوجد عدد محدود من المُبعَدين هنا، تعرَّضوا للإقصاء من بولندا في عام 1864. إنهم طيبون، مضيافون، ومهذّبون. ويعيش بعضهم في بذخ واضح، بنما يعاني آخرون من الفقر المدقع، ويعملون كَتَبَةً في المحطّات. وعند صدور العفو العام من الحكومة البولندية، عاد الأثرياء منهم إلى بولندا، لكنهم سرعان ما عادوا إلى سيبريا مجدَّداً؛ حيث كانت حياتهم أفضل. أما الفقراء فلقد حلموا بالعودة إلى الوطن، رغم أنهم

1- الفلاحون، حرفياً «مسيحيون».، تعليق المترجم من الروسية إلى الإنجليزية.

كانوا عجائز عجزة. في إيشيم، قام ثريّ بولندي، بان زايلسكي، وله ابنة تشبه ساشا كيزيلوف، بتأجير حجرة وتقديم عشاء رائع لي مقابل روبيل واحد في اليوم، كان يدير نَزله، ويكتنز المال بشراهة متناهية، وكان يستنزف أموال الجميع، لكنه ظلّ ذلك البولندي المهذَّب في سلوكه، في طريقة تقديم الوجبات، وفي كل شيء.

بدافع الجشع لم يرجع إلى بولندا، وبدافع الجشع تحمَّل الثلوج حتى جاء موعد الاحتفال بالقدّيس نيقولا، وعندما يموت، ستبقى ابنته، التي ولدت في إيشيم، هنا للأبد، وهكذا سوف تضاعف من عدد العيون السوداء والملامح الرقيقة في سيبريا!. ومثل هذا التمازج العرضي للدماء مفيد، لأن السيبيريين ليسوا جميلين. ليس بينهم أشخاص بشعر داكن. وربما تودّين لو أكتب عن التتار بلا ريب، إن عددهم محدود للغاية هنا. إنهم أناس صالحون. ففي إقليم كازان يذكرهم الجميع بالخير هنا، حتى القساوسة، وفي سيبريا يقولون إنهم «أفضل من الروس»، مثلما قال لي «الرئيس» في حضور مجموعة من الروس الذين التزموا الصمت أمام قوله هذا.

يا الله، كم هي غنيّة روسيا بالناس الطيبين!. لولا البرد الذي يحرم روسيا من الصيف، ولولا الموظّفون الحكوميون الذين يستغلّون الفلاحين والمبعدين، لكانت سيبريا أغنى وأسعد الأراضي.

لا طعام لديّ للعشاء. عادة ما يحمل الأشخاص العقلاء عشرين رطلاً من المؤن عندما يذهبون إلى تومسك. ويبدو أنني كنت مغفّلاً، وهكذا عشت لأسبوعين لا أتناول سوى اللبن والبيض المسلوق. خلال يومين يُصاب المرء بالضجر من مثل هذه الرحلة. فطوال رحلتي لم أتناول العشاء سوى مَرّتين، ولا أحسِب، هنا، دعوة العشاء «مرق السمك» التي جاملتني بها

الزوجة اليهودية، التي التهمت خلالها الطعام بعد أن تناولت ما يكفي مع كل كوب شاي شربته. لم أتناول الفودكا أبداً؛ فالفودكا السيبرية كريهة للغاية، وحقيقة، أقلعت عن عادة تناولها خلال طريقي إلى أيكاترينبرج. ويضطرّ المرء إلى شرب الفودكا لأنها تنبّه المخ، وما تعالج يلحق بالمرء من كسل ولامبالاة من جراء السفر، مما يجعله غبياً وواهناً.

توقّفت! لا أستطيع الكتابة، فلقد جاء رئيس تحرير سيبريسكي فيستينيك «ن»، وهو سكّير خليع، كي يتعرَّف بي، تناول بعض البيرة، ثمّ رحل. وبعدها عاودت الكتابة.

وخلال الأيام الثلاثة الأولى من رحلتي، آلمتني عظام الترقوة، والكتفين والفقرات، بسبب ارتجاج العربات على الطرقات غير الممهَّدة. لم أكن قادراً على الوقوف أو الجلوس أو الاستلقاء، لكن على الجانب الآخر، تلاشت جميع الآلام في رأسي وصدري، وتحسَّنت شهيَّتي بشكل لا يُصدَّق، وتراجعت البواسير لدرجة التلاشي. لكن التوتُّر الزائد، والقلق الدائم على الحقائب وغيرها، وربما الإفراط في الشراب خلال حفلات الوداع في موسكو، تسبَّب في بصاق الدم في الصباحات، والتي تسبَّبت في شيء من الاكتئاب، وإثارة أفكار متشائمة، لكن، باقتراب نهاية الرحلة تلاشت هذه الأعراض، فالآن لا أعاني حتى من السعال. ولقد مضى زمن طويل منذ أن سعلت قليلاً كما هي الحال الآن، وذلك بعد أن أمضيت أسبوعين في الهواء الطلق.

فبعد الأيام الثلاثة الأولى من السفر، بدأ جسدي يتعوَّد الاهتزاز، وبمرور الوقت لم أعد ألاحظ تعاقب الظهيرة والمساء والليل. أصبح الوقت يمرّ سريعاً كما يحدث في المرض الخطير. فيمكنك أن تتكهَّن بأنه منتصف النهار، عندما يقول الفلاحون «سيدي، يجب أن تتأهَّب لحلول الليل، أو

ربما نضلّ في الظلام»، وعندما تنظر إلى ساعتك، وتجدها التاسعة فعلياً.

كانوا يقودون بسرعة، لكن تلك السرعة لم تكن ملفتة. ربما يرجع ذلك إلى أننا كنا نسير على الطرقات في ظل ظروف سيئة، ففي الشتاء يجب أن يكون السفر أسرع. إنهم يندفعون بالخيول إلى أعلى التلال بسرعة كبيرة، وقبل الانطلاق وقبل أن يستقر السائق في مكانه، هناك حاجة لرجلين أو ثلاثة لكبح جماحها. تذكِّرني الخيول هنا بفرقة خيول الإطفاء في موسكو. وذات يوم كدنا أن ندهس امرأة عجوز، ومرة أخرى كدنا أن نصطدم بسجن الترحيل. الآن، هل تودّين أن أسرد لك قصة مغامرة أدين فيها بحياتي لسائق سيبيري؟. فقط أرجو من أمّي ألا تبكي وتنتحب، فالمغامرة انتهت على خير. ففي السادس من مايو، وقرابة نهاية اليوم، كانت العربة التي أركبها يجرها حصانان يقودهما سائق عجوز لطيف.

كانت عربة شيز صغيرة، وكنت نعساناً، ولبرهة من الزمن، رأيت بريق الأضواء الملتوية في الحقول وأجمات البتولا، فلقد كان ذلك هو موعد إحراق العشب، فهذه عادتهم هنا. وفجأة سمعت القعقعة الرشيقة للعجلات، إنها كارة تسير بسرعة هائلة نحونا كما لو كانت طائراً، وسارع سائقي العجوز بالتحرُّك جهة اليمين، فاندفعت الخيول الثلاثة إلى اليمين، وإذا بي أرى عبر الظلمة كارة ضخمة وثقيلة وسائقها باتّجاه رحلة العودة. وتبعتها كارة أخرى تسير بسرعة هائلة. وسارعنا بالانحراف قدر المستطاع إلى اليمين. ومما أثار استغرابي وانتباهي أن الكارة لم تتَّجه إلى اليمين بل إلى اليسار... وبالكاد كان لديّ وقت للتفكير في الوضع «يا إله السموات! ستصطدم العربتان!»،

وعندما وقع التصادم الهائل، تداخل الحصانان في كتلة سوداء، وسقطت السروج، وارتفعت عربة الشيز التي أركبها عالياً في الهواء، وتهاويت على

الأرض، وتساقط متاعي فوقي، لكن هذا لم يكن كل شيء، فلقد كانت هناك عربة ثالثة مندفعة فوقنا، وكان هذا كفيلاً بتحطيمي ومتعلّقاتي إلى ذرّات، لكن حمداً للرب! لم أكن نائماً، ولم تنكسر لي عظمة واحدة في هذا السقوط، ونجحت في النهوض سريعاً والابتعاد عن موقع الحادث. «وصحت في سائق الكارة الثالثة: «توقّف».... «توقّف»!، لكنها كانت مندفعة ولم تتوقف إلا بعد الاصطدام بالعربة الثانية. ومن المؤكد أني لو كنت قادراً على النوم في عربة الشيز، أو لو تبعت العربة الثالثة العربة الثانية مباشرة، لكنت سأعود كسيحاً أو فارساً بلا رأس. وكانت نتيجة الحادثة، تحطّم العربات، وتمزُّق حبال الجر والسروج، وتناثرت المتعلّقات على الأرض، أما الخيول فلقد أصيبت بسجحات وجروح، وكانت منهكة للغاية، وتعاظم داخلنا شعور أننا في خطر. واتَّضح أن السائق الأول نجح في كبح خيول عربته، أما السائقان الآخران فكانا نائمين، وتبعت خيول عربتيهما العربة الأولى دون أية سيطرة عليها. وعند الإفاقة من الصدمة، انخرط سائقي العجوز والرجال الثلاثة الآخرون في تبادل الشتائم بضراوة. أوه، كم كانوا متجاوزين في تبادل السباب!. وظننت أن الأمر سينتهي بعراك. ولا يمكنك تصوُّر الشعور بالوحدة وسط هذا الوابل من السباب السوقي في الخلاء، قبيل الفجر، وعلى خلفية النيران التي ترعى في العشب قريباً وبعيداً، دون أن تؤدّي هذه النيران إلى تدفئة هواء الليل البارد!. أوه، كم كان قلبي مثقلاً بالحزن والخوف! فعندما سمعت السباب، وتطلَّعت إلى العربات المهشّمة والحاجيات المبعثرة، بدا الأمر وكأنني قد انجرفت إلى عالم آخر، كما لو كنت على وشك أن أُهشَّم في لحظة.... وبعد ساعة من تبادل السباب والإهانات، يضمّ السائق القوائم المفكّكة بحبل، ويسعى إلى جمع ما تناثر، وحتى أحزمتي استخدمها في مهمّته هذه. ووصلنا إلى المحطة بطريقة ما، كنا نسير ببطء متناهٍ كما لو كنّا نزحف، ثم نتوقَّف من حين إلى آخر.

وبعد خمسة أو ستة أيام بدأ هطول أمطار مصحوب بهبوب رياح شديدة. كانت تمطر ليل نهار. ارتديت معطفي الجلدي الذي وقاني من المطر والريح. ياله من معطف رائع! كان المرور عبر الوحل صعباً للغاية، وبدأ السائقون يتذمرون من الاستمرار في السير خلال الليل. لكن أسوأ الأشياء جميعاً، وما لن أنساه مطلقاً، هو عبور الأنهار، فعند الوصول إلى النهر ليلاً يبدأ صياح الركاب والسائقين، بالإضافة إلى هطول الأمطار وهبوب الرياح، وانزلاق قطع الثلج عبر النهر؛ مما يؤدِّي إلى صوت طرطشة... وللإضافة إلى مباهجنا، يتصاعد صياح طيور البلشون التي تعيش طيور البلشون حول الأنهار السيبرية وعلى سطح مياهها، ومن ذلك يبدو أنها لا تهتمّ بالطقس بقدر اهتمامها بالموقع.

وبعد ساعة، في الظلام، تراءى لنا قارب نقل يشبه مركب نقل البضائع، وله مجاديف ضخمة تشبه كلّابات السلطعون.

كان رجال النقل على هذا الزورق أفظاظاً، لأن معظمهم كانوا من المبعدين عن أوطانهم الأصلية إلى هنا كعقاب على حياتهم الآثمة. إنهم يستخدمون لغة سيّئة إلى درجة لا تُحتَمل، ويتبادلون الصراخ؛ طالبين المال والفودكا.. كان النقل عبر الأنهار يستغرق وقتاً طويلاً للغاية، طويلاً لدرجة مزعجة. بدأ قارب النقل يتحرّك ببطء. ومجدَّداً انتابني ذلك الشعور بالوحدة، وبدا صياح طائر البلشون كما لو كان ينقل رسالة، كما لو كان يقول: «أيها الرجل العجوز لا تخف، أنا هنا، لقد أرسلني أفراد عائلة لينتفاريوفس Lintvaryovs إلى هنا من بسِول Psyol.

وفي السابع من مايو عندما طلبت الخيول، قال السائق إن نهر الإرتيش قد فاض عن ضفافه وأغرق السهول الخضراء، لدرجة أن الباخرة كوزما Kuzma انطلقت أمس، وواجهت صعوبة في العودة، ونتيجة لذلك فأنا

لا أستطيع الانتقال، ويجب أن أنتظر... وعندما تساءلت: إلى متى؟ جاءت الإجابة: الربّ وحده يعرف!. يالها من إجابة مبهمة! كذلك، كنت قد أقسمت على التخلُّص، خلال هذه الرحلة، من اثنين من نقائصي والتي كانت مصدراً لقدر كبير من الكلفة والمشاكل والارتباك، وأعني بذلك استعدادي للانقياد، وسهولة إغرائي؛ فسرعان ما أوافق، وبناء على ذلك أضطرّ للسفر بأية حال، مما يضطرّني، أحياناً، إلى دفع ضعف النفقات والانتظار لساعات كذلك. أقسمت أن أرفض الموافقة والانقياد، وهكذا تراجعت آلام جانبي. على سبيل المثال، عندما أحضروا عربة نقل غير مناسبة، فلقد كانت كارة عادية وكثيرة الارتجاج، رفضت أن أسافر بها، وأبديت إصراراً على ذلك، وبداخلي ثقة أن هناك عربة أخرى، لابدّ ستظهر، رغم أنهم قد يعلنون أنها غير موجودة في القرية كلها... إلخ. وحقيقة، شككت أنه تمّ اختراع مسألة فيضانات نهر إرتيش، ببساطة، لتجنُّب القيادة خلال هذا الوحل ليلاً. احتججت وطلبت منهم أن ينطلقوا. وافق الفلاح الذي سمع عن الفيضانات من كوزما، لكنه لم يرها، وشجّعه الرجال العجائز بقولهم إنهم عندما كانوا شباباً، واعتادوا القيادة، لم يكونوا يخشون شيئاً. وانطلقنا، وسط هطول متزايد للأمطار وهبوب للعواصف، وتزايد الصقيع... وشعرت بحذائي البوت على قدميّ. هل تعرفين كيف يكون الشعور بحذاء البوت عندما تمتلئ بالماء؟ إنها تصبح كما لو كانت مصنوعة من الجيلي. واستمر تقدُّمنا عبر الطريق، ويالهول ما رأيت! لقد تجسَّدت أكاذيبهم أمام عيني في هيئة بحيرة هائلة، تظهر خلالها الأرض في شكل بقع متناثرة هنا وهناك، وكذلك الأجمات: تلك هي السهول التي أغرقها الفيضان.

ومن بعيد تراءت ضفة نهر إيرتيش، وعليها تنتثر أشرطة بيضاء من الثلج. بدأنا الانطلاق بالعربة مجدَّداً عبر البحيرة. ربما كان علينا أن نعود

أدراجنا، لكنه العناد ما حال دون ذلك، وسيطرت عليّ نزوة غير مفهومة بالمعارضة لتلك النزوة التي جعلتني أقفز من اليخت في وسط البحر الأسود، ودفعتني للقيام بعدد غير قليل من الأفعال الحمقاء... أُرجِّح أن ذلك نوع خاص من العُصاب. وواصلنا السير متلمِّسين ما توافر من الجزر الصغيرة وأشرطة اليابسة وسط المياه. وبحثنا عن الكباري وألوح الخشب كعلامات إرشادية عبر الطريق، لكن الفيضان كان قد جرفها كلها.

وللعبور عليها، كان عينا أن نخلِّص الخيول من سروجها ونقودها واحداً بعد الآخر. قام السائق بفكّ السروج عن الخيول، وقفزت إلى الماء بحذائي البوت وأمسكت بها... يالها من تسلية مبهجة! والأمطار والريح. يا ربّ السماء! وأخيراً وصلنا إلى جزيرة صغيرة وعليها ينتصب كوخ وحيد بلا سقف. وبدأت الخيول المبلَّلة تتجوَّل في الروث المختلط بالوحل. خرج من الكوخ فلاح بيده عصا طويلة، وتولّى مهمّة قيادتنا. إنه يقوم بقياس عمق المياه بواسطة عصاه، ويختبر صلابة اليابسة. قادنا للوصول إلى شريط طويل من اليابسة، يباركه الربّ على صنيعه هذا، أطلق عليه «الجرف». وشدّد علينا أننا لابدّ أن نلتزم الجانب الأيمن -وربّما يكون الأيسر، لا أتذكَّر- لنصل إلى جرف آخر.

وهذا ما فعلناه. امتلأ حذائي البوت المصنوع من الكتان بالماء، وصدر عنه صوت بقبقة بما احتواه من مياه، وكذلك عن جوربي صدر الصوت نفسه. لم يتفوّه السائق بكلمة، دون أن يتوقّف عن الفرقعة بالسوط، في إيقاع مغتم، لحثّ الخيول على مواصلة السير. كان من دواعي سروره أن يعود أدراجه، لكن، الآن، فات أوان ذلك، كان الظلام قد حلّ، وأخيراً، يا للبهجة! وصلنا إلى نهر إيرتيش.. كانت ضفّته القصيّة بارزة، أما القريبة فكانت منحدرة. كانت الضفة القريبة غائرة، تبدو شديدة الانحدار، منفرة، وجرداء، وكانت المياه العكرة تفيض عليها بما تحمله من رغوة

بيضاء، ثم تتراجع ثانية كما لو كانت قد شعرت بالاشمئزاز عند ملامسة الضفة المنحدرة غير المألوفة، حيث يبدو أن الضفادع وأرواح المجرمين وحدها تستطيع أن تعيش عليها. ولم يصدر عن نهر إيرتيش أي هدير أو صوت مرتفع، لكنه بدا كما لو كان له إيقاع جنائزي حزناً على الأكفان المستقرّة في قاعه. ياله من انطباع لعين! أما الضفة البعيدة فهي مرتفعة، تراكم عليها طمي بنّي داكن، ومهجور.

كان هناك كوخ، يعيش فيه رجال يعملون في نقل البضائع. خرج أحدهم ليعلن أن النقل مستحيل فالعاصفة على وشك الهبوب. وقالوا إن النهر واسع والعاصفة قوية؛ وبناءً على ذلك كان عليّ أن أبقى الليل في الكوخ. إنها ليلة لا تُنسى: شخير عمّال النقل وسائقي، زئير الريح، دمدمة المطر، غمغمة نهر إيرتيش. وقبل الذهاب إلى النوم، كتبت رسالة إلى ماريا فلاديميروفنا؛ فلقد تذكّرت بركة بوزهاروفسكي.

وفي الصباح، لم تكن لديهم رغبة في نقلي عبر النهر، فلقد كانت الريح شديدة. كان علينا أن نجدِّف ونحن نركب القارب. قمت بالتجديف عبر النهر، وبدأ تساقط الأمطار، وهبوب الرياح، غرقت حاجياتي في المياه وكذلك فردتا حذائي (البوت) المصنوعتان من الكتان واللتان كانتا قد جفّتا خلال الليل عندما وضعتهما في الفرن، أصبحا مثل الجيلي مجدداً. أوه، لم أُصب بالأنفلونزا، وذلك بفضل معطفي الجلدي العزيز. وعند عودتي يجب أن تكافئيه بدهنه بالشحم الحيواني أو زيت القندس.

على ضفة النهر جلست ساعة بكاملها على حقيبتي في انتظار الخيول القادمة من القرية. وأتذّكر كم كان الجرف الذي صعدناه منحدراً للغاية. وفي القرية تدفّأت بنَفَسي، وشربت بعض الشاي. جاء بعض المُبعدين متوسِّلين للحصول على بعض الصدقات. وكانت كل أسرة تخبز يومياً

حوالي أربعين رطلاً من دقيق القمح من أجلهم. يبدو الأمر كما لو كان نوعاً من الإتاوة الجبرية.

وكان هؤلاء المبعدون يبيعون هذا الخبز ليشربوا بثمنه الخمر في الحانة. وجاءني واحد منهم، كان عجوزاً رثّ الهيئة يسير بصعوبة بالغة، وكانت بعينيه كدمتان على يد رفاقه من المبعدين في الحانة. كان قد سمع عن وجود مسافر بالحجرة، واصطحبني إلى لقاء أحد التجار، وبدأ الغناء وتلاوة الصلوات. تلى صلاة طلباً للصحة ولطمأنينة الروح، وغنّى ترنيمة عيد الفصح «لينهض الربّ، بصحبة القديسين، يا إلهي»، وتقريباً لم يترك أغنية لم يتغنَّ بها. وبعد ذلك بدأ سلسلة من الأكاذيب، من بينها ادّعاؤه أنه كان تاجراً في روسيا. ولاحظت كم كان هذا المخلوق السكّير يزدري الفلاحين الذين كان يعيش من خيرهم.

وفي الحادي عشر من الشهر، انطلقت بنا خيول البريد. وقرأت دفاتر الشكاوى في محطة البريد من فرط شعوري بالسأم.

وفي يوم الثاني عشر، لم يوافقوا على إعطائي خيولاً، متذرِّعين بأنني لن أتمكّن من قيادتها، لأن نهر «أوب» فاض وأغرق جميع السهول. ونصحوني أن أسلك الطريق المؤدّي إلى كراسني يار، ومنه، مسافة عشرين فرست، إلى دبروفين بالقارب، ومن دبروفين يمكنني أن أحصل على خيول البريد. استأجرت خيولاً خاصّة لنقلي إلى كراسني يار. ووصلت في الصباح، فأخبروني بوجود قارب، لكن يجب أن أنتظر قليلاً من الوقت لأن الجدّ قد أرسل أحد العمال بالقارب لتوصيل سكرتير الرئيس إلى دوبروفين.

حسناً، سننتظر.... مضت ساعة، وأخرى وثالثة، وأوشك اليوم على الانتصاف، ومن بعده يأتي المساء. الله كريم، كم شربت من الشاي! وكم

تناولت من الخبز! وكم من الأفكار دارت بعقلي!، وكم استغرقت في النوم!. حَلّ الظلام، ولم يأت أيّ قارب، وتبدى نور الصباح. وأخيراً، عند التاسعة صباحاً، عاد العمال. حمداً للرب، ها نحن نطفو أخيراً! وكم كان ذلك جميلاً! هدأت الريح، والمجدِّفون بارعون، والجزر جميلة. حاصرت الفيضانات الرجال والماشية بغتةً، ورأيت الفلاحات وهن يجدِّفن في قوارب للوصول إلى الجزر حيث توجد الأبقار لحلبها. والأبقار نحيلة وكئيبة الهيئة. فلم يكن ثمة عشب لها، بسبب البرودة الشديدة.

كان العمال قد جدّفوا لاثني عشر فرستاً. وعند الوصول إلى محطة دوبروفين، شربت شاياً، ومع الشاي قدّموا لي -تصوَّري- كعك الوَفل[1].

وخمّنت أن ربّة المنزل من المُبعدين أو زوجة لأحد المُبعدين. وعند الوصول إلى المحطّة التالية، اشتكى لي رجل دين عجوز بولندي، قدَّمت له بعض الأنتيبيرين[2]، من الفقر، وذكر كونت سابيجا، وهو بولندي وكان حاجباً بالمحكمة النمساوية، وساعد رفاقه من القرويين، وأنه وصل مؤخَّراً، وهو في طريقه إلى سيبريا، وأضاف رجل الدين: «إنه يقيم بالقرب من المحطّة، في مكان لا أعرفه، يا أيتها الأم المقدسة، توقّعت أن يساعدني، كتبت إليه في فيينا، لكنني لم أتلقَّ أيّ رد..».

لماذا لست من البوليس السرّي؟ لو أنا كذلك لكنت سأعيد هذا الرفيق المسكين إلى وطنه.

وفي الرابع عشر من مايو، رفضوا مجدّداً أن يوفِّروا لي الخيول. لقد فاض نهر الـ«توم». ياله من اضطراب! لا يقتصر الأمر على الاضطراب، بل

1- Waffle: الوَفل، كعكة تُعد من دقيق وحليب وبيض، وتُشوى في أداة خاصة؛ تُعرف بـ« مشواة الوَفل».

2- Antipyrin: الأنتيبيرين، مركب أبيض يُستخدم لتسكين الألم.

يتجاوزه إلى اليأس! أبعد بخمسين فرست عن تومسك، وإذا بي أواجه هذا العائق غير المتوقع!. لو كانت هناك امرأة مكاني لما توقّفت عن البكاء والعويل. وجد بعض أصحاب القلوب الرحيمة حلّاً لورطتي، ونصحوني بأن أواصل المسير حتى أصل إلى نهر «توم» على بعد ستة فرسات من هنا، وأضافوا: «وهناك سينقلونك في قارب تجديف عبر النهر إلى «يار»، ومنها ستقلّك إليا ماركوفيتش إلى تومسك». استأجرت حصاناً وانطلقت إلى توم، إلى المكان حيث يُفترض أن يوجد فيه القارب. وعند وصولي لم أجد أي قارب. وهناك أخبروني أنه قد انطلق توّاً بالبريد، ومن الصعب أن يعود قريباً بسبب العاصفة. بدأت الانتظار. كانت اليابسة مغطّاة بالثلوج، هطلت الأمطار وتساقط البَرَد، وهبَّت الرياح...

مَرَّت ساعة، واثنتان، ولم يظهر أيّ قارب. إن القدر يسخر مني. وعدت إلى المحطة. وهناك كان ساعي البريد، وبصحبته ثلاثة خيول لنقل البريد، يتأهّب للانطلاق باتّجاه نهر توم. أخبرته أنه لا يوجد قارب ليقلّه من هناك. فمكث. لقد كافأني القدر، إذ أخبرني، بعد استفساري المرتبك عن وجود شيء صالح للأكل، أن ربّة المنزل لديها بعض مرق الكُرُنب. يا سلام! إنه يوم سعدي! وجلبت لي ابنة ربّة المنزل مرق كرنب رائع، ومعه بعض قطع اللحم والبطاطس المحمَّرة والخيار. ولم أحظَ بتناول مثل هذا العشاء منذ كنت في بان زاليسكي. وبعد تناول البطاطس غادرت، وأعددت لنفسي بعض القهوة.

وعند اقتراب المساء، قام ساعي البريد، وهو رجل طاعن السن، بَذَل مجهوداً واضحاً طوال اليوم، ولم يتجرّأ أن يجلس في حضوري، بالتجهيز للانطلاق إلى نهر «توم». وفعلت الشيء نفسه. وبمجرّد وصولنا إلى النهر، تراءى لنا قارب ما، وكان قارباً طويلاً، ولم أحلم يوماً بقارب بمثل هذا الطول. وبينما كان يتمّ تحميل البريد على القارب، شهدت ظاهرة

غريبة، كان هناك دويّ رعد، وهو حدث غريب في مثل هذه الريح الباردة، وبمثل هذا الثلج على الأرض. أكملوا التحميل، ثم انطلق القارب.

عزيزتي ميشا، سامحيني لأن بهجتي بالسفر أنستني أن أصطحبك معي! لكن، كم كنت حصيفاً لعدم اصطحابي أي شخص! ففي البداية انطلق القارب عبر مرج من أجمات الصفصاف. وكما هو مألوف، أنه قبل العاصفة أو خلالها، تهبّ ريح قوية فجأة، وتتسبب في تزايد سرعة تدفُّق المياه وارتفاع الأمواج. ونصحنا المراكبي، الجالس عند دفة القارب، أن ننتظر بين أجمات الصفصاف إلى حين انتهاء العاصفة. وردّوا عليه بأنه إذا ساءت العاصفة، فربّما يبقون بين أجمات الصفصاف حتى حلول المساء، وحينها ستغرقهم المياه تماماً.

ولجأوا إلى الاقتراع العلني للاستقرار على قرار بالأغلبية، وجاء القرار بالاستمرار في التجديف والتقدُّم كم كان قدري ساخراً شريراً! أوه، لماذا هذه الأحداث التهكُّمية السمجة؟. جدفنا في صمت، وركَّزنا أفكارنا.... تذكَّرت هيئة ساعي البريد، رجل متنوّع التجارب. وتذكّرت الجندي الشاب الذي أصبح قرمزياً كما عصير الكرز. فكَّرت: إذا انقلب القارب، سأقذف بمعطفي الفرو ثم بالمعطف الجلدي، وبعدها حذائي (البوت) المصنوع من التيل، ثمَّ... وهلمّ جرّا. لكن ضفة النهر لاحت أقرب وأقرب، وسرت الطمأنينة إلينا، ونبض قلبي مبتهجاً، وأطلقت زفرة كما لو أنه بوسعي أن أتنفّس بحرية أخيراً، وقفزت إلى الضفة الزلقة. حمداً للرب!.

وعند الوصول إلى إليا ماركوفيتش، (تحمل اسم شخص تحوَّل إلى اليهودية) أخبروني أنه ليس بوسعي أن أستكمل مسيرتي ليلاً، فالطريق سيئة، ولذلك عليَّ أن أبقى إلى اليوم التالي. ولم يكن ذلك بالأمر السيئ،

وبقيت. وبعد تناول الشاي، جلست لأكتب لك هذه الرسالة، ولم يقاطعني شيء سوى زيارة الـ«رئيس». والرئيس هو مزيج ثري من نوزدريوف وهليستاكوف والشخص اللئيم. إنه سكّير، خليع، كاذب، مغنّ، حكّاء، وبالإضافة إلى كل ما سبق هو رجل ودود. كان قد أحضر معه صندوقاً كبيراً ممتلئاً بأوراق العمل. وكان السكرتير رجلاً رائعاً، جيد التعليم، ليبرالياً احتجاجياً تعلَّم في بطرسبرج، وصاحب فكر متحرّر. ولا علم لديّ بالذي أتى به إلى سيبريا، هو مصاب إصابة بالغة بكافة أنواع الأمراض، وكان مضطرّاً لأن يشرب، رغم مبادئه، مما جعله «كوليّاً».

إن الرجل الممثِّل للسلطة الرسمية أرسل في طلب شراب مُسكِر. صاح منادياً: «يا دكتور، اشرب كأساً أخرى، أتوسّل إليك!». وبالتأكيد، شربت هذه الكأس. كان ممثِّل السلطة الرسمية، يشرب بصوت مرتفع، يتمدّد بوقاحة، ويستخدم لغةً فاضحة. وبعدها ذهبنا للنوم. وفي الصباح تَمّ طلب الشراب المُسكِر مُجدّداً. تجرّعا الشراب حتى العاشرة مساءً، وفي النهاية رحلا. وسكان إليا ماركوفيتش، يقولون إن الفلاحين،هنا، يحبون هذا الشخص المتهوِّد لدرجة العبادة، لقد أعطوني الخيول التي ستقلّني إلى تومسك.

وركبنا نحن الثلاثة، الرئيس والسكرتير وأنا، العربة نفسها. وطوال الطريق لم يتوقّف الرئيس عن سرد الأكاذيب، كما لم يتوقّف عن العبّ من زجاجة الشراب، ويتباهي بأنه لم يحصل على أية رشاوى، وكان غاضباً مما شاهده، ولوّح بقبضته في وجه من قابلهم من متسوِّلين أو بغايا. سارت بنا العربة لمسافة 15 فرست، ثم عرّجت على قرية بروفكينو... توقّفنا بالقرب من دكّان لأحد اليهود بغرض الاستراحة وتناول وجبة وشراب خفيف. وسارع اليهودي بإحضار شراب مُسكِر لنا، بينما كانت زوجته تعدّ لنا بعضاً من مرق السمك، وهي السيدة نفسها التي كتبت لك

عنها توّاً. وأمَرَ الرئيس بأن يتمّ إحضار كل من «سوتسكي sotsky» و«دسياتسكي desyatsky»، ومقاول الطريق، ليمثلوا أمامه. وفي سُكْره هذا بدأ يوبِّخهم، ولم يكبح جماحه شيء؛ حتى وجودي بينهم. كان يطلق الشتائم مثل التتري.

وسرعان ما انفصلت عن الرئيس، وفي عشية الخامس عشر من مايو، انطلقت عبر طريق مرعب، لكنه يؤدّي إلى تومسك. وخلال اليومين الأخيرين لم نقطع سوى 70 فرستاً، وهكذا، بوسعك أن تتصوّري مدى سوء الطرقات!

في تومسك، كان من العسير المرور عبر الوحل. وعن المدينة وأسلوب المعيشة هنا، سأكتب بعد يوم أو يومين، لكن، وداعاً الآن، فلقد مللت من الكتابة.

لا وجود لخشب الحور هنا. كانت الباخرة كوفشينيكوف راسية هنا. ورأيت طيور العندليب والعقعق والوقواق.

اليوم تسلَّمت برقية مكوّنة من 80 كلمة من سوفورين.

أرجو قبول اعتذاري عن تفكك رسالتي هذه. فهي غير مترابطة، لكن ما باليد حيلة. فحتى لو كنت بغرفة في أحد الفنادق، فلن أستطيع أن أكتب أفضل منها. واغفري لي طولها، فهذا ليس خطأي. فقلمي يطاوع تدفُّق أفكاري، بالإضافة إلى أنني أرغب في الحديث معك. إنها الثالثة بعد منتصف الليل. كلَّت يدي. وبدأت فتيلة الشمعة تذوي، وبالكاد أستطيع أن أرى. اكتبي لي عند الوصول إلى كل أربعة أو خمسة أيام. ويبدو أن البريد يتمّ نقله هنا ليس، فقط، عن طريق البحر، بل براً أيضاً عبر سيبريا، وهكذا سيكون بوسعي أن أتسلّم الرسائل تباعاً.

أخبرني جميع أهالي تومسك أنهم لم يسبق لهم أن شهدوا ربيعاً ممطراً وبارداً مثل هذا الربيع، منذ عام 1842. إن نصف تومسك مغمور بالمياه. إنه حظّي!

أتناول الحلوى الآن.

سأمكث في تومسك حتى توقُّف هطول الأمطار. إنهم يقولون إن الطريق إلى إركيوتشك رهيب للغاية.

تومسك، 20 مايو

اليوم عيد الثالوث المقدّس[1]، لكن هنا، حتى الصفصاف ما زال عارياً من الأوراق، ومازالت الثلوج تغطّي ضفّة نهر توم. غداً، سأبدأ رحلتي إلى إركوتشك. أنا اليوم في راحة. لا حاجة للعجلة، فحركة السفن البخارية في بحيرة بيكال لن تبدأ قبل العاشر من يونيو، لكن، لابدّ أنني أتبع هذا الطريق.

أنا على قيد الحياة، نقودي بأمان، أعاني ألماً خفيفاً في عيني اليُسرى؛ بها ألم خفيف متواصل.

نصحني الجميع بأن أعود عبر أميركا، حيث يُقال إن المرء قد يموت ضجراً في وسائل النقل البحري التطوّعي، فجميعها خاضع للنظام العسكري وضوابط الشريط الأحمر، وغالباً، لا تتوقّف في أي ميناء بطريقها.

ولتمضية الوقت أقوم بتدوين بعض انطباعاتي عن رحلتي، وأرسلها إلى صحيفة «نوفوي فريميا- Novoye Vremya- New Times» وسوف تطّلعين عليها بعد العاشر من شهر يونيو. إنني أكتب القليل عن كل شيء، نوعاً ما من الثرثرة. لا أكتب من أجل المجد، لكن من وجهة نظر تجارية، ومقابل النقود التي حصلت عليها مُقدّماً.

تومسك مدينة مملّة للغاية. وتأكَّد لديّ هذا الشعور من السكارى الذي تعرّفت إليهم عن قُرب، ومن المُثقَّفين الذين جاؤوا إليّ في الفندق للتعبير عن تقديرهم لي، والسكّان -كذلك- مملّون للغاية.

1- Trininty: عيد الثالوث المقدس، الأحد الثامن بعد عيد الفصح.

خلال يومين ونصف اليوم سأصل إلى كراسنويارشك، وخلال سبعة أو ثمانية أيام سأصل إلى إركوتشك. تبعد إركوتشك 1500 فرست. أعددت لنفسي القهوة، وسأتناولها الآن.

عد تومسك تقع تايجا. سنمرّ بها لرؤيتها.

تحيّاتي إلى جميع أفراد عائلة لينتفاريوفس Lintvaryovs، وماريوشكا العجوز. أتوسّل إلى أمي ألّا تقلق، ولا تترك نفسها نهباً للأحلام السيئة. هل نجحت زراعة الفجل؟ لا يوجد أيّ منه هنا.

استمتعوا بوقتكم، ولا تقلقوا بشأن النقود، سنحصل على الكثير منها، لا تحاولوا الاقتصاد في النفقات، وتفسدوا عطلتكم الصيفية.

كراسنويارشك، 28 مايو 1890

ياله من طرق مُهلِك!. ولم يكن بوسعنا إلا أن نتقدّم حثيثاً نحو كراسنويارشك، وتمّ إصلاح العربة التي تقلّني مرّتين. وكان أوّل ما تعرَّض للكسر تلك القطعة الرأسية من الحديد التي تربط مقدّمة العربة بمحورها، ثُمّ كُسِرت الدائرة الموجودة أسفل الفرامل. طوال حياتي لم أشهد مثل ذلك الطريق المملوء بالوحل الذي يعوق الحركة، ويعاني -كذلك- من كل مظاهر الإهمال. وسأكتب إلى نوفويو فريميا عن الأهوال التي واجهتها هنا، ولهذا لن أذكرها الآن.

آخر ثلاث محطّات كانت رائعة، فكلّما اقتربنا من كراسنويارشكا، يبدو أننا نقترب من عالم مختلف. فلقد خرجنا من الثلج إلى السهل الذي يشبه سهل «دونيتس ستيب Donets steppe»، لكن هنا قمة الجبل أضخم. شروق الشمس في أبهى حالاته، وأشجار البتولا أزهرت، رغم أنه قبل ثلاث محطّات، لم تكن البراعم قد تفتّحت حتى.

حمداً للربّ، أخيراً وصلت إلى مكان فيه الصيف بلا أمطار أو ريح باردة. إن كراسنويارشكا فاتنة المناظر، مدينة متحضِّرة، ومقارنة بها تبدو تومسك «مثل خنزير على رأسه قلنسوة ضيقة، وفي قمّة التأنُّق». الشوارع هنا نظيفة وممهّدة، والبيوت مُشيَّدة من الحجر ومتَّسعة، والكنائس جيّدة التشييد والزخرف.

أنا حي وبخير حال. ونقودي بأمان، وكذلك باقي متعلّقاتي، فقط فقدت جوارب صوفية، لكنني وجدتها سريعاً.

وباستثناء العربة التي أقلّتني، كل شيء كان مُرضياً، وليس هناك ما أشكو

منه. فقط أنفق قدراً هائلاً من المال. لا يشعر المرء بالعجز عن تلبية الاحتياجات العملية اليومية كما يشعر خلال رحلة ما. إنني أُنفق أكثر من حاجتي، فأنا أتصرَّف بشكل خاطئ، وأقول كلاماً غير صحيح، ودائماً أتوقّع ما لا يحدث.

سوف أصل إلى إركوتشك خلال خمسة أو ستة أيام، حيث سأمضي عدّة أيام هنا، ثمّ أتوجّه إلى سريتينشك، وهناك ستنتهي رحلتي على اليابسة. لأكثر من أسبوعين وأنا في عربة تسير بلا توقُّف، لا أفكر في شيء سوى الطريق، ولا أعيش لشيء سوى الوصول، فكل صباح أرى الشمس من شروقها إلى غروبها. وأصبحت معتاداً للغاية على ذلك الأمر، كما لو أنني أمضيت حياتي في قيادة العربات ومحاولة التغلُّب على الطرقات الموحلة. وعندما تتوقَّف الأمطار، ولا يتبقى هناك أية أوحال على الطريق، يشعر المرء بالدهشة وبقليل من الضجر. كم أنا بذيء! كم أبدو نذلاً! وكم تبدو ملابسي تعيسة الحظّ، وفي حالة رثّة!.

... أخبري أمي أنه مازال بحوزتي برطمان ونصف البرطمان من القهوة، وأتغذّى على الجراد والعسل البرّي، واليوم سأتناول طعام العشاء في إركوتشك. وكلما اتّجه المرء إلى الشرق، تصبح الأشياء أغلى. فهنا دقيق الجاودار بسبعين كوبيك للبود، بينما على الجانب الآخر من تومسك كان بخمسة وعشرين أو سبعة وعشرين كوبيكاً للبود، بينما دقيق القمح بثلاثين كوبيكاً للبود. والتبغ الذي يُباع في سيبريا فاسد وكريه، أشعر بالقلق لأن التبغ الذي أحمله قارَبَ هذه الحالة.

أسافر بصحبة ملازمين وطبيب بالجيش، وجميعهم يقصدون أموراً ما. وهكذا لم تعد لمسدسي قيمة تُذكَر. فمع مثل هذه الصحبة، حتى الجحيم لن يكون مرعباً. كنا قد تناولنا الشاي توّاً في المحطّة، وبعد تناول الشاي

سنقوم بجولة في المدينة.

ليس لديّ أي تحفُّظ على الحياة في كراسنويارشك. ولا أعرف سبب اختيار هذا المكان لإرسال المبعدين إليه.

الإنسان

تشيخوف



عائلة تشيخوف

إركوتشك، 6 يونيو 1890

تحياتي لكم، إلى أمّي، وإيفان، وماشا، وميشا، وجميعكم!

في رسالتي الأخيرة المطوَّلة، كتبت إليكم أن الجبال تشبه قمّة سلسلة جبال دونيتس، لكن هذا ليس صحيحاً، فعندما تطلّعت إليها من الشارع رأيت أنها تشبه الجدران المرتفعة التي تحيط بالمدينة، وذكَّرتني بالقوقاز. وعند اقتراب المساء، غادرت المدينة وعبرت نهر ينيسي، رأيت على الضفة الأخرى جبالاً تشبه -تماماً- جبال القوقاز، ضبابية وحالمة. نهر ينيسي عريض تنساب مياهه برشاقة، ويتَّسم بأنه كثير المنعطفات، جميل ورائق الصفحة أكثر من نهر الفولجا. والمرور خلاله رائع، لكن لابدّ أن تكون المراكب جيدة التصميم والإنشاء، بما يسمح بالإبحار عكس اتّجاه التيار.

تلك الجبال ونهر ينيسي هي أول الأشياء الأصيلة والجديدة التي أصادفها في سيبريا. لقد منحتني مشاعر عوّضتني عمّا واجهته من متاعب ومشكلات خلال الرحلة، والتي جعلتني أنعت ليفيتان بالمغفَّل لأنه كان غبياً للغاية، ولم يرافقني.

تمتَدّ التيجة[1] بشكل متواصل من كراسنويارشك إلى إرتوشك. وأشجارها ليست أضخم من أشجار سوكولنيكي، ورغم ذلك، لا يعرف ولو سائق واحد كم تبلغ مساحتها. فليس من نهاية يُمكن رؤيتها بالعين المجرَّدة. إنها تمتد إلى مئات الفرسات. ولا يعرف أحد نوع الكائنات التي تعيش في التيجة، وهل هي عاقلة أم غير عاقلة. وفقط، في الشتاء، يتوافد الناس

1- Taiga: التيجة، غابة صنوبر.

من أقصى الشمال، عبر التيجة، وبصحبتهم حيوانات الرنة[1] من أجل الحصول على الخبز. وعند بلوغ قمّة الجبل والنظر منها إلى الأسفل، ترى أمامك جبلاً ثُمّ آخر، وكذلك هناك جبال على الجانبين، وجميعها مُغطّاة بطبقة سميكة من الثلج. وغالباً ما تجعل الخوف يسري في الأوصال عند التطلُّع إليها. وذلك هو ثاني الأشياء الأصيلة والجديدة.

من كراسنويارسك، بدأ الطقس يصبح حارّاً ومترباً. الحرارة فظيعة. ولذلك طويت الكاب ومعطفي المصنوع من جلد الماعز، ووضعتهما بعيداً في حقائبي. التراب يملأ فمي وأنفي، ويلطِّخ أسفل عنقي. أفّ!. نحن نقترب من إركوتشك، وكان علينا أن نعبر نهر أنجارا على متن قارب نقل. وعلى سبيل السخرية منّا، هبّت ريح قويّة. وبعد أن عشنا، رفقتي من العسكريين وأنا، في حلم قضاء عشرة أيام في حوض الاستحمام وتناول العشاء والنوم، وقفنا على ضفة النهر وقد اصفرّت وجوهنا قلقاً من أن نُضطر لقضاء الليلة في القرية، لا في إركوتشك. ولم ينجح قارب النقل في الوصول إلى ضفّة النهر. وقفنا ساعةً، وأُخرى، يالرحمة السماء، لقد نجح القارب في الوصول إلى ضفة النهر بعد جهد جهيد!.

برافو، سنحظى بالاستحمام، وسنتناول طعام العشاء ونخلد إلى النوم!. أوه، كم رائع أن يستحم المرء ويأكل وينام!.

إركوتشك مدينة جميلة، هادئة ومُتحضِّرة. فيها مسرح ومُتحف وحديقة عامّة حيث تقوم فرقة موسيقية بالعزف، وفيها فندق ملائم....لا وجود لأسوار بشعة المنظر، أو لافتات سخيفة على المحال، ولا أماكن لاستنزاف أموال الناس بالإعلانات المُثيرة. وهناك خان يُدعى «تاجانروج»، حيث سعر رطل السكر 24 كوبك، وسعر لُبّ الصنوبر 6 كوبيكات للرطل.

1- Reindeer: الرنة، نوع من الأيائل.

أنا بخير حال. نقودي بأمان. أدَّخر ما لديّ من بُنّ إلى حين الوصول إلى سَخالين. أشرب شاياً رائعاً هنا، يجعلني أشعر بقدر معقول من الانتعاش والانتباه. رأيت رجالاً صينيين. إنهم ودودون وأذكياء. وعند بلوغ ضفة النهر السيبيري، قدّموا لي المال على الفور، واستقبلوني بترجاب شديد، وجاملوني بتقديم السجائر، ودعوني إلى النزول ضيفاً عليهم في منزلهم الصيفي. هناك الكثير من محال بيع الحلوى، لكن كل شيء هنا باهظ الثمن للغاية. الأرصفة هنا من الخشب.

ليلة أمس، تجوّلت بالسيارة مع بعض رجال الشرطة. سمعنا شخصاً ما يصرخ طلباً للعون ستّ مرات. لابد أنه كان شخصاً يتعرّض للقتل. وذهبنا لاستكشاف الأمر، لكننا لم نعثر على أي شخص.

في إركوتشك للعربات وسائد من الزنبرك لامتصاص الصدمات. إنها مدينة أفضل من إيكاترنبرج أو تومسك. إنها مدينة أوروبية الطابع بحقّ.

أقيموا قدّاساً كبيراً في السابع عشر من يونيو[1]، كذلك احتفلوا في يوم التاسع والعشرين من يونيو[2] قدر استطاعتكم، سأصاحبكم بفكري، ويجب أن تشربوا نخباً في صحتي.

كل متعلّقاتي أصبحت مجعَّدة وقذرة وممزَّقة!، إنني أبدو مثل لصّ.
لن أُحضر لك فرواً في غالب الأحوال، لأنني لا أعرف أين يتمّ بيعها، بالإضافة إلى أنني كسول، لدرجة تجعلني لا أسأل عن أماكن بيعها.

يجب أن يصطحب المرء وسادتين كبيرتين معه في الرحلات، بالإضافة

1- ذكرى وفاة أخيه نيكولاي.

2- Name day: عيد الشفيع، عيد القدّيس الذي يحمل أي إنسان اسمه.

إلى أكياس داكنة اللون للوسائد.

ما أخبار إيفان؟ ماذا يفعل؟، أين هو؟ هل توجَّه إلى الجنوب؟. سأتوجّه من إركوتشك إلى بيكال. ويتأهّب رفاقي للإصابة بدوار البحر.

أصبح حذائي البوت فضفاضاً من تكرار ارتدائي له، ولم يعد يؤلم كعبَيْ. طلبت عصيدة الحنطة السوداء من أجل الغد. وخلال الرحلة هنا فكرت في اللبن الرائب، وبدأت أشتريه مع اللبن الطازج من كل محطة أصل إليها.
هل استلمت البطاقات البريدية التي أرسلتها إليك من المدن الصغيرة التي مررت بها؟ احتفظي بها، فبواسطتها سأستطيع أن أقدِّر كم يستغرق وصول البريد. البريد هنا بطيء نوعاً ما.

إركوتشك، 7 يونيو، 1890

... تغادر الباخرة ميناء سريتينشك في العشرين من يونيو. ليرحمني الرب، ماذا سأفعل إلى أن يحلّ هذا اليوم؟. كيف سأشغل وقتي؟ فالرحلة إلى سريتينشك لن تستغرق إلا خمسة أو ستة أيام. لقد غيّرت مسار رحلتي تغييراً جذريّاً. فمن هابروفيسك (انظروا الخارطة)[1]، لم أتوجّه إلى نيكولافيسك، بل توجَّهت إلى أوسوري، ومنها إلى فالديفوستوك، ومن هناك إلى سَخالين. لابد أن أُلقي نظرة على منطقة أوسوري. وفي فالديفوستوك، سأسبح في البحر، وآكل المحار.

... كان الطقس بارداً عند الوصول إلى مانسك، ومن كانسك (طالعي الخارطة) بدأت التوجُّه إلى الجنوب. وبدأ كل شيء يخضوضر كما هو الحال عندك، حتى أشجار البلوط. أشجار البتولا لونها أكثر دكنة من مثيلاتها في روسيا، الأخضر ليس عاطفياً للغاية. وهناك أعداد كبيرة من أشجار الغُبيراء الروسية بيضاء اللون، وهي هنا تحلّ محلّ أشجار الليلك والكرز. ويقولون إنهم يصنعون مربّيات رائعة من ثمار أشجار الغُبيراء. وتذوّقت بعض ثمار الغُبيراء مُخَلّلة، ولم تكن سيّئة المذاق.

يصاحبني الضابطان وطبيب الجيش. لقد حصلوا على نفقات سفرهم مضاعفة لثلاث مرّات، ورغم ذلك فلقد أنفقوها عن آخرها، رغم أنهم يسافرون في عربة واحدة. إنهم مفلسون للغاية، ولا يحتكمون حتى على فارذنج[2] واحد منتظرين أن ترسل لهم جهة عملهم بعض النقود. إنهم

1- خلال غياب تشيخوف، حازت أسرته خارطة لسيبريا، كانوا بواسطتها يتابعون مراحل تقدمه في رحلته.

2- Farthing: الفارذنج، قطعة نقد بريطانية تساوي ربع بنس، شيء ضئيل القيمة.

رفاق ودودون. كان بحوزة كل واحد منهم 1500 روبيل لتغطية نفقات السفر، ولم تكن الرحلات لتكلفهم سوى أقلّ القليل (إذا ما استبعدنا بالطبع ما كانوا ينفقونه في كل محطة توقُّف). كانوا يفاوضون كل من قابلهم سواء في المحطات أو في الفنادق، لدرجة جعلت الناس يخشون تقديم الفواتير لهم. وفي صحبتهم دفعت أقلّ من المعتاد. واليوم، ولأول مرة، أشاهد قطّة سيبرية، لها فراء ناعم طويل، وسلوك لطيف.

شعرت بحنين إلى الوطن، واليوم أرسلت لك برقية أطلب منكم أن تساهموا جميعاً، وترسلوا لي برقية طويلة. أظن أنه لن يثقل كاهلكم- يا أهل بيت لوكا- أن ينفق كل منكم خمسة روبيلات.

من الذي يحبّه ميشكا؟ من المرأة التي يحكي لها إيفانينكو الحكايات عن عمّه؟ لابد أنني أحبّ يامايس لأنني حلمت بها أمس. وبالمقارنة مع الشابات السيبيريات من حيث مظهرهن (هنّ لا يعرفن كيف يلبسن أو يغنّين أو يضحكن)، فإن يامايس، دريشكا، وجونداشيا -ببساطة- ملكات. الفتيات والنساء السيبيريات مثل السمك المجمّد، فالمرء يجب أن يكون حيوان الفظ[1] والفقمة[2] ليتمكّن من مغازلتهن.

مللت من رفاقي. من الألطف أن يسافر المرء بمفرده. أحبّ الصمت أكثر من أي شيء آخر في الرحلة، ورفاقي لا يتوقّفون عن الكلام والغناء، إنهم لا يتكلّمون سوى عن النساء. لقد اقترضوا 36 روبيلاً مني على أن يردّوها غداً، وأنفقوها في التوّ. إنهم مبذِّرون للغاية.

أحياناً، تبعد المحطات، بعضها عن الآخر، مسافة تتراوح بين 30 و35

1- Walrus: حيوان ثدييّ شبيه بالفقمة، وتعني الفظّ.

2- Seal: الفقمة، عجل البحر، حيوان من لواحم البحر؛ شبيه بالسمك ظاهراً، لكنه من الثدييات.

فرستاً. وعند السير ليلاً، تسير العربة وتسير حتى تشعر بالسخف وبالدوار، وإذا جازفت بسؤال السائق: كم تبعد المحطّة التالية؟ لن يجيبك برقم أقلّ من (سبعين فرستاً)، وتترك هذه الإجابة ألماً في النفس، خاصة عندما تكون مضطرّاً للإسراع في طريق موحل ممتلئ بالحُفر،وعندما تكون ظمآن.

لقد تعلّمت أن أنام وسط الضجيج، ولا أمانع -مطلقاً- يقومون بإيقاظي. كقاعدة لا ينام المرء ليوم وليلة، ثمّ في اليوم التالي عند وقت الغداء يشعر المرء بثقل في جفونه، وفي المساء والليل، قرب فجر اليوم الثالث، ينعس المرء في عربة الشيز، وأحياناً يغفو لدقائق وهو جالس، وعلى العشاء وبعده في المحطات، وبينما تحظى الخيول بفترة الراحة دون سروجها، يستلقي المرء على كنبة، لكن العذاب الحقيقي يبدأ في الليل.

في المساء، وبعد تناول سبعة أكواب من الشاي، يحل الخدر بكامل الجسد، ويتوق المرء للاستلقاء على ظهره، تنغلق عيناه، وتؤلمه قدماه داخل حذائه البوت الضخم، ويصبح عقله مشوّشاً. وإذا تركت نفسي للنوم فإنني أغطّ في نوم عميق من فوري،وإذا كانت لديّ رغبة في الاستمرار، فإنني أنام في عربة الشيز مهما كانت شدّة الارتجاجات
وعند الوصول إلى المحطات، يقوم السائقون بإيقاظ الراكب ليدفع أجرة السفر. ولا يقومون بإيقاظ الراكب عن طريق الصراخ أو جذبه من كمّه، بقدر ما تسبِّب ذلك رائحة الثوم التي تفوح من أفواههم، تفوح منهم رائحة الثوم والبصل دائماً لدرجة تصيبني بالغثيان.

تعلمت النوم في عربة الشيز بعد أن تجاوزنا كراسنويارشك. وفي الطريق إلى إركيوتشك نمت طوال ثمانية وخمسين فرستاً، ولم أستيقظ خلالها

سوى مرة واحدة. لكن النوم في عربة على الطريق، لا تجعل المرء يشعر بتحسُّن. إنه ليس نوماً حقيقياً، لكنه نوع من فقدان الوعي، وبعده يصبح رأس المرء مشوّشاً، ويصبح للفم مذاق سيّئ.
إن الصينيين يشبهون هؤلاء الرجال الطاعنين في السن الذين اعتاد عزيزي نيكولاي أن يرسمهم. ولبعضهم ضفائر صغيرة رائعة.

جاءت الشرطة لرؤيتي في تومسك. وقرابة الساعة الحادية عشرة أخبرني الساقي -فجأة- أن مساعد رئيس الشرطة يريد رؤيتي.
ما سبب ذلك؟ هل هي السياسة؟ هل يشتبهون في أنني فولتيريّ؟ قلت للساقي: اُطلب منه الدخول. دخل سيّد مهذّب بشارب طويل، وقدَّم نفسه. يبدو أنه كان مهتمّاً بالأدب، بل هو نفسه كاتب، ودخل عليّ في حجرتي كما لو كان داخلاً على النبي محمد في مكة ليعلن إسلامه. وسأخبرك لماذا أذكره في رسالتي لك. في نهاية الخريف سيذهب إلى بطرسبرج، وتثاقلت عليه بطلب أن يحمل صندوقي معه، ويودعه مكتب جريدة «نوفوي فريميا».
يجب أن تتذكري هذا في حالة ذهاب أي فرد من عائلتنا أو أصدقائنا إلى بطرسبرج.
وبالمناسبة، بوسعك أن تبحثي عن مكان في الريف. فعند عودتي إلى روسيا سأستريح لخمس سنوات، لا أفعل شيئاً سوى البقاء في مكان واحد غير منشغل بشيء. أي مكان بالريف سيكون ملائماً. أعتقد أنه من الممكن تدبير النقود، فالأحوال لا تبدو سيئة. وإذا أنجزت العمل الذي حصلت على مقابله المادي مقدّماً (أنجزت نصفه فعلياً) سيكون عليّ أن أقترض ألفين أو ثلاثة آلاف روبيل في الربيع؛ على أن أسدِّدها خلال خمس سنوات.
ولا يتعارض هذا مع ضميري، فلقد سمحت لقسم النشر في «نوفويا

فريميا» أن ينشروا ألفين أو ثلاثة آلاف نسخة من كتبي، وسأسمح لهم أن ينشروا المزيد منها.

وأعتقد أنني لن أشرع في أي عمل جادّ قبل أن أبلغ الخامسة والثلاثين... أرغب أن أستمتع بحياتي الخاصة، والتي جرّبتها سابقاً، لكنها مَرَّت دون تأثير واضح بسبب العديد من الظروف والملابسات.

اليوم مشّطت معطفي الجلدي بالدهن. إنه معطف رائع. لقد وقاني من الإصابة بالبرد. كذلك معطفي المصنوع من جلد الغنم ممتاز هو الآخر، لقد استخدمته كمعطف ومرتبة.فبداخله يشعر المرء بالدفء كما لو كان داخل فرن. لكنه غير مريح دون وسائد.ولا يحلّ القش محلها، فمع الاحتكاك المستمرّ يعلق الكثير من الأتربة بوجه المرء بما يمنعه من النوم.ليس لديّ ملاءة واحدة. هذا بشع للغاية. كذلك اكتشفت أنني بحاجة للمزيد من البناطيل.

محطّة ليستفنيتشنايا، على بحيرة بيكال، 13 يونيو

يمرّ الوقت رتيباً. ففي مساء الحادي عشر من يونيو، أوّل أمس، انطلقنا من إركوتشك، على أمل أن نلحق بباخرة بيكال، والتي تغادر في الرابعة صباحاً. وفي المسافة بين إركوتشك وبيكال، هناك ثلاث محطّات. وفي المحطّة الأولى أخبرونا أن جميع الخيول منهكة؛ ولهذا فمن المستحيل أن نتحرّك في الوقت الراهن. وكان علينا المبيت هنا هذه الليلة. صباح أمس، تحرَّكنا من المحطة، وعند الظهيرة وصلنا بيكال. ذهبنا إلى الميناء، وإجابة عن تساؤلاتنا أخبرونا أن الباخرة لن تتحرَّك قبل الجمعة الموافق الخامس عشر من يونيو. ومعنى هذا أننا يجب أن نبقى على الشاطئ، ونتطلّع إلى المياه، وننتظر. وحيث إن لكل شيء نهاية بمرور الوقت، لم يكن لديّ اعتراض على الانتظار، وأنا دائماً أتحلّى بالصبر خلال الانتظار، لكن المشكلة أن الباخرة ستغادر في العشرين من الشهر باتّجاه «أمور». وإذا لم نلحق بالباخرة فلن يكون أمامنا إلا انتظار الباخرة التالية، والتي لن تغادر قبل الثلاثين من الشهر. يالرحمة السماء. متى أصل إلى سَخالين!

انطلقنا إلى بيكال بمحاذاة ضفّة نهر أناجرا، الذي ينبع من بحيرة بيكال، ويصب في ينيسي. طالعي الخارطة.

الضفاف فاتنة. سلاسل جبلية، وغابات كثيفة على الجبال. لا يزال الطقس بديعاً مشمساً ودافئاً، وخلال الطريق شعرت أنني بحالة جيدة للغاية، أشعر بسعادة شديدة أعجز عن وصفها. ربما يرجع ذلك إلى التباين بين الإقامة في إركوتشك وبين المناظر الفاتنة على ضفاف الأنجارا والتي تشبه سويسرا.

إنه شيء ما جديد وأصيل. سرنا بمحاذاة ضفّة النهر وصولاً إلى منبعه، وتحوّلنا إلى اليسار، حتى وصلنا إلى ضفة بحيرة بيكال، والتي يسمّونها البحر في سيبريا. إن صفحة مياهها مثل المرآة. وبالتأكيد، لم يكن من الممكن رؤية الضفة الأخرى للبحيرة، فهي تبعد تسعين فرستاً. الضفاف مرتفعة، منحدرة، صخرية، ومغطّاة بالثلج، وإلى اليمين واليسار هناك رعنات[1] تشبه الأوداج Au-dag أو الهوتيبل في فوديسيا Tohtebel at Feodosia.إنها تشبه الكريميا crimea. تقع محطة ليستفنيتشنايا عند حافة البحيرة، وهي شبيهة، للغاية، بيالطا؛ لو كانت البيوت بيضاء لكانت صورة طبق الأصل من يالطا. فقط لا توجد بيوت على الجبال، فهي شاهقة الارتفاع لدرجة تحول دون البناء على قممها.

استأجرنا حجرة مناسبة تذكِّرني بتلك الدارات الموجودة في كراسكوفسكي. ومن النافذة، على بعد ياردتين أو ثلاث ياردات، تقع بحيرة بيكال. وإيجار هذه الحجرة روبيل في اليوم. لكن فكرة أننا سنبقى هنا إلى الخامس عشر من الشهر، أفسدت عليّ جمال الجبال والغابات وصفحة مياه البحيرة الرائقة كما المرآة. ماذا سنفعل هنا؟ ماالذي نجهله؟ وما الطعام الذي سنتناوله؟.

إن سكان المكان لا يأكلون سوى الثوم. لا لحم أو سمك. لم يقدِّموا لنا اللبن، لكنهم وعدونا بتقديمه. ومقابل رغيف من دقيق القمح يطلبون ستة عشر كوبكاً. اشتريت بعض الحنطة السوداء وقطعة من لحم الخنزير المُدخَّن، وطلبت أن يعدّوا لي عصيدة منها: لم تكن طيبة المذاق، لكن، ما باليد حيلة، لم يكن أمامي سوى تناولها. وطوال فترة الظهيرة كنا نتجوَّل في القرية بحثاً عن شخص يبيعنا دجاجة، ولم نجد أحداً.

1- Promontory: الرّعن، قُنّة الجبل الخارجة منه والداخلة في البحر.

لكن، كانت الفودكا متوافرة. الروسي خنزير كبير، فإذا سألته لماذا لا يأكل اللحم أو السمك، سيُرجِع ذلك إلى غياب وسائل المواصلات والاتّصالات... إلى آخر تلك الأسباب، رغم أن الفودكا موجودة بكميات كبيرة، لكن في قرى بعيدة للغاية. وبوسع المرء أن يخمِّن أن جلب اللحم والسمك لابدّ يكون أسهل من جلب الفودكا صعبة النقل وباهظة الثمن. بالتأكيد إن تناول الفودكا أكثر متعة من صيد السمك من بحيرة بيكال أو تربية الماشية.

وعند منتصف الليل وصلت باخرة صغيرة، وذهبنا لنستطلع الأمر، وانتهزنا الفرصة لنسأل عن أي شيء صالح للأكل. وأخبرونا أنه سيكون بوسعنا أن نتناول طعام الغداء غداً، لكن، الآن، الوقت متأخِّر، لقد انطفأت نيران المطبخ... إلخ.. شكرناه بالنسبة للغد، فعلى كلٍّ أصبح هناك شيء نتطلع إليه!. لكن واحسرتاه! جاء ربّان الباخرة وأخبرنا أن الباخرة ستبحر غداً في الرابعة من بعد الظهر مُتَّجهة إلى كلتوك. شكرناه، ونحن في البار، حيث لم تكن من مساحة لنتحرّك فيها.

شربنا زجاجة بيرة حامضة رديئة الطعم (الزجاجة بخمسة وثلاثين كوبكاً)، ورأيت في أحد الأطباق كريّات بلون الكهرمان، كانت كافيار السالمون. عدنا إلى الحجرة التي استأجرناها لننام. سئمت من النوم، فيومياً كان عليّ أن أبسط معطفي المصنوع من جلد الأغنام بطبقة الصوف لأعلى، وتحت رأسي أضع معطفاً سميكاً مطوياً، ووسادة كذلك، وأستلقي على هذه الكومة مرتدياً صدرية وبنطالاً... أيتها الحضارة، أين أنت؟.

اليوم، تهطل الأمطار وبحيرة بيكال يغمرها الضباب. «كم هو شائق هذا!»، أخمِّن أن سيماشكو سيعلِّق بهذه الجملة. هذا مملّ، لم أجد سوى

الجلوس والكتابة، لكن، لا يستطيع المرء أن يعمل في الطقس الرديء. هذا نذير بملل بشع، فلو كنت بمفردي ما تأفّفت، لكن هناك ضابطين وطبيباً في الجيش بصحبتي، وجميعهم مغرمون بالحديث والجدل. لا يفهمون كثيراً، لكنهم يتحدّثون في كل شيء.

وأحد الضابطين متغطرس ومتبجِّح. عندما أسافر في المستقبل سأحرص على أن أكون بمفردي. فالجلوس في عربة تشيز أو حجرة بمفردي متأمِّلاً ومتفكِّراً أكثر متعة من وجود صحبة.

هنِّئوني: بعت وسيلة النقل الخاصة بي في إركوتشك. ولن أذكر كم تقاضيت ثمناً مقابلها، وإلا ستسقط أمي مَغشيّاً عليها، ولن تنام لخمس ليال.

تشيخوف

1 يونيو، 1890

في السادسة مساءً، وليس بعيداً عن ستانيتسا بكروفسكايا.

مرَّت الباخرة على صخرة، ممّا خلَّفَ فجوة في الباخرة، والآن يتمّ إصلاحها. جنحت الباخرة واصطدمت بالشاطئ الرملي، وبدأنا نضخّ المياه من السفينة. إلى اليسار الضفة الروسية، وإلى اليمين الضفة الصينية.
إذا قُدِّر لي أن أعود إلى وطني الآن، سيكون من حقّي أن أتفاخر: «رغم أنني لم أكن في الصين، فلقد رأيت الصين من بعد عشرين قدماً فقط».
يجب علينا أن نمكث الليلة في بوكروفسكايا. وسنقيم حفلاً بهدف رؤية المكان.
إذا كنت مليونيراً، لم أكن سأتوانى عن امتلاك باخرة في «أمور». إنها منطقة ريفية بديعة. وأنصح إيجور ميهالوفيتش بأن يقصد هذه المنطقة بدلاً من «توابز - Tuapse»، ولا وجود هنا للعناكب الذئبية أو الجراد.
وعلى الجانب الصيني، هناك مخفر وكوخ صغير، وهناك -كذلك- أكياس من الدقيق مكوَّمة على الضفة، ويقوم رجال صينيون بائسو الهيئة بسَحب الأكياس إلى داخل الكوخ على عربات يد. وفي الخلفية تتراءى الغابات الكثيفة مترامية الأطراف.
صحبتنا بعض الطالبات من إركوتشك، لوجوههنّ سمت روسي، لكنهن لسن جميلات.

بوكروفاسكايا ستانيستا، 23 يونيو 1890

لقد أخبرتك توّاً أننا اصطدمنا بضفّة رملية. وعند بلوغ أوست سترايلكا، حيث يلتقي نهرا شيلكا، وأرجون (راجعي الخارطة)، علقت الباخرة في مياه ضحلة بعمق قدمين ونصف القدم، اصطدمت بصخرة، وأدّى ذلك إلى فجوات متعدِّدة بجانبها، وامتلأ مخزن الباخرة بالماء، وغرقت الباخرة حتى استقرّت بالقاع. وبدأوا بضخّ المياه منها باستخدام مضخّات، وإغلاق الفجوات التي نشأت، وزحف بحّار عاري الجسد إلى المخزن، ووقف في المياه التي وصلت حتى رقبته، وحاول غلق الثقوب بكعبَيْ قدميه، وتمّت تغطية كل ثقب من الداخل بقطعة قماش مغموسة في الشحم، ووضعوا لوح خشب على القمّة، ثم ثبّتوا دعامة خشبية فوق الأخير، وقد حملت السقف كما لو كانت عموداً. كانت تلك هي عملية الإصلاح. وكانوا يضخّون المياه إلى خارج الباخرة من الساعة الخامسة من بعد الظهر حتى الليل، دون أن يتسبَّب ذلك في إنقاص المياه، واضطرّوا إلى إيقاف العمل حتى الصباح التالي.

وفي الصباح اكتشفوا المزيد من الثقوب في جسد الباخرة، وبدأوا محاولات غلقها وضخّ المياه مجدَّداً. كان البحّارة يقومون بضخّ المياه، بينما نحن -الركاب- كنا نروح ونجيء على سطح الباخرة، ولا نتوقّف عن الانتقاد، والأكل، والشرب، والنوم، وفعَلَ الربّان ووكيله كما فعلنا، ولم يبدُ عليهما أنهما في عجلة من أمرهما. وإلى اليمين كانت الضفّة الصينية، وإلى اليسار تقع ستانيستا، بوكروفسكايا، حيث يعيش القوزاق من «أمور» وإذا أراد المرء الذهاب إلى روسيا فله ذلك، وإذا أراد الذهاب إلى الصين فله ذلك، ليس هناك ما يحول دونه والقيام بما يرغب.

كانت حرارة الجوّ لا تُطاق خلال النهار، لدرجة أن المرء لا يحتاج أن يرتدي أكثر من قميص حريري. وقدّموا لنا طعام العشاء في الثانية عشرة ظهراً، أما العشاء ففي السابعة مساءً.

ولسوء الحظ وصلت الباخرة فيستنيك من الاتجاه المقابل، وكان عليها عدد كبير من المسافرين متهيّئين للنزول في ستانيتسا، ولم تنجح فيستنيك في الوصول إلى رصيف الميناء، وعلقت الباخرتان كلتاهما. وكانت هناك فرقة موسيقية عسكرية على الباخرة فيستنيك، وهكذا، كانت هناك حفلة موسيقية دورية. وطوال الأمس قامت الفرقة الموسيقية بالعزف على سطح الباخرة، وذلك بغرض تسلية الربّان والبحّارة، ولشغل الوقت إلى أن يتمّ إصلاح الباخرة.

كان النصف النسائي من الركاب مبتهجاً غاية الابتهاج؛ فهناك فرقة موسيقية وضبّاط وبحّارة....أوه! كذلك كانت الطالبات سعيدات بشكل خاص. فمساء أمس، تجوَّلنا في مستعمرة القوزاق، حيث كانت الفرقة الموسيقية نفسها قد تَمَّ استئجارها للعزف هناك. واليوم بدأت عملية الإصلاح مجدَّداً.

وعد الربّان بأننا سننطلق مجدَّداً بعد تناول طعام الغداء، لكنه كان غير حاسم في وعده، وكان يحدِّق بعيداً في المدى، وبدا كما لو كان غير واثق ممّا يقول.

لم نكن في عجلة من أمرنا. وعندما سألت مسافراً: «متى سنرحل من هنا؟»، أجابني: «لماذا تسأل؟ ألست مرتاحاً هنا؟».
وهو على حقّ، لماذا لا نمكث لأطول فترة ممكنة طالما لم ينل منا الضجر؟.

كان الربان ومعاونه ومساعده في قمّة الأدب. وكان الصينيون، من ركّاب الدرجة الثالثة، ودودين ومرحين. أمس جلس أحد الصينيين على سطح الباخرة، وغنّى أغنية حزينة للغاية بصوت متكلَّف ومرتفع الطبقة، وفي أثناء ذلك كانت هيئة وجهه من الجانب مثيرة للضحك أكثر من أي كاريكاتير. وتطلَّع الجميع إليه وضحكوا، لكنه لم يُعِرْ أدنى انتباه لكل ذلك.

غنّى بصوت عالي الطبقة، ثم غنّى بصوت تينور. يا إلهي، ياله من صوت! كان غناؤه مشابهاً لغثاء الخراف أو خوار عجل. يذكِّرني الرجال الصينيون بالحيوانات الأليفة اللطيفة، وضفائرهم الطويلة السوداء تشبه ضفائر ناتاليا ميهالوفنا.

وبمناسبة ذكر الحيوانات الأليفة، هناك جرو ثعلب أليف يعيش في الحمّام. وهو قابع هناك، يتابع كل من يدخل للاغتسال. وإذا لم يرَ أحداً لفترة طويلة يبدأ بالعواء كما لو كان يبكي.

يالغرابة المحادثات التي أتابعها هنا! إنهم لا يتحدّثون إلا عن الذهب، المناجم، قافلة المتطوِّعين واليابان. وفي بكروفسكايا يقوم جميع الفلاحين، وحتى الكهنة، بالتنقيب عن الذهب. والشيء نفسه يقوم به المنفيون، ويصبحون أثرياء بالسرعة نفسها التي يصبحون بها فقراء. وهناك أشخاص يشبهون الخلافيين المهرة، وهؤلاء لا يشربون سوى الشمبانيا، وللذهاب إلى الحانة، يسيرون على بساط أحمر يتمّ مدّه من أكواخهم إلى الحانة.

تَتّسم قرية «أمور» بأنها ممتعة للغاية، وبالأصالة الواضحة. وتبدو الحياة

هنا منبتّة الصلة عن نمط الحياة الأوروبي. إنها تذكِّرني بالقصص الأميركية، فالشواطئ برّية للغاية، وتتَّسم بالأصالة وبالترف، بما يجعل المرء يتوق إلى الحياة هناك طوال حياته.
أكتب هذه السطور المعدودة في الخامس عشر من يونيو. بدأت الباخرة تهتزّ؛ ممّا أعاق استمراري في الكتابة. إنها تتحرَّك مجدَّداً.
تجاوزنا «أمور» بألف فرست، ورأينا ملايين المشاهد الفاتنة، وتملَّكني الدوار من فرط النشوة والابتهاج. يالها من مشاهد رائعة! وكم هو الجو حارّ هنا! والليالي، كم هي دافئة! هناك ضباب في الصباح، ورغم ذلك، يظلّ الجوّ دافئاً.
نظرت عبر منظار الأوبرا إلى الشاطئ، فرأيت عدداً هائلاً من البط والإوز والغطاس[1] والبلشون، وجميع أنواع الكائنات ذات المناقير الطويلة. هذا هو المكان المثالي لمنزل صيفي. وفي مكان صغير يُدعى رينوف، طلب مني شخص ينقّب بحثاً عن الذهب، أن أفحص زوجته المريضة. في أثناء مغادرة منزله، وضع في يدي لفة أوراق نقدية. شعرت بالخجل. وبدأت أرفض، وأعيدها إليه، وأخبره أنني غني، ولست بحاجة إلى المال، وتبادلنا أطراف الحديث لفترة طويلة، وكل منا يحاول إقناع الآخر، وفي النهاية وجدت في كفّي خمسة عشر روبيلاً. وأمس، تناول شخص آخر من المنقّبين عن الذهب، له وجه بتيا بوليفايف، طعام الغداء معي، وفي قمرتي، وعلى الغداء تناول الشمبانيا بدلاً من الماء، ودفع مقابل الطعام والشراب.

القرى هنا تشبه تلك التي على نهر الدون. هناك اختلاف في المباني، لكنه طفيف للغاية. لا يهتمّ السكان هنا بالصيام، إنهم يتناولون اللحم حتى في الأسبوع المقدِّس، والفتيات يدخن السجائر، والسيدات العجائز

1- طائر مائي.

يدخنّ البايب!. ويالها من ليبرالية! أوه، يالها من ليبرالية!.

الهواء على الباخرة ملتهب بالانفعال والحماسة المتزايدة مع احتدام النقاش. هنا لا يخشى الناس أن يتحدّثوا بصوت مرتفع؛ فليس هناك من سيقوم بالانقضاض عليهم، أو ينفيهم إلى مكان ما، وهكذا يصبح بوسعك أن تكون ليبرالياً كما تشاء. إجمالاً، الناس مستقلّون، يعتمدون على أنفسهم، وعقلانيون.

وإذا كان هناك أية إساءة فهم في أوشت كارا، حيث يعمل المجرمون (بينهم العديد من السياسيين الذين لا يعملون)، فإن منطقة «أمور» بكاملها في حالة ثورة. ولا يتعلّق الأمر برواية القصص. فبوسع المجرم الهارب أن يسافر بحرّية على متن الباخرة إلى المحيط، دون أدنى خوف من أن يقوم ربّان الباخرة بتسليمه. ويرجع ذلك -جزئياً- إلى الاختلاف التام مع كل ما يتمّ في روسيا، حيث يتساءل الجميع: «ماذا ستفعل معي؟».

نسيت أن أخبرك أنه في ترانسبيكاليا السائقون ليسوا روسيين، بل بوريات- Buriats[1].إنهم أناس مرحون، وخيولهم خبيثة للغاية، فليس من الممكن تجهيزها دون أن تحدث مشكلة، إنها أكثر اهتياجاً من خيول الإطفاء. فعندما يتمّ تطقيم الحصان الذي يجرّ عربة، حيث يتمّ تقييد سيقانه بإحكام، لأنه، بمجرد أن تتحرَّر، تنطلق العربة بسرعة شديدة للغاية،مما يؤدّي إلى انحباس الأنفاس.

وإذا لم تُقَيَّد سيقان الحصان في أثناء تطقيمه، فإنه سيرفس، يلفظ الحَكَمة المطبّقة على فمه، يضرب العربة بحوافره، يمزِّق سرجه، ويتصرَّف مثل شيطان صغير أفزعته أصوات الأبواق التحذيرية.

1- البوريات: أكبر أقلية عرقية تعيش في سيبريا، وتعود أصولها إلى أقصى شمال منغوليا.

26 يونيو

إننا نقترب من بلاجوفيشتشينسك[1]. انعمي بموفور الصحّة والبهجة، ولا تعتادي على الحياة بدوني. لا شكّ أنك بدأت تعتادين ذلك!.

لكم كل التحية والاحترام، وقبلة محبّة.

أنا بخير حال.

1- إحدى مدن روسيا في الكيان الفيدرالي الروسي «أمور أوبلاست». يبلغ عدد سكانها حوالي 210101 نسمة. وتقع على نهر آمور عند مصب نهر زيي، وتبعد عن العاصمة موسكو حوالي 7990 كم. ومساحتها أكثر من 350 كيلومتراً مربعاً، وتعداد سكانها حوالي 220 ألف نسمة. وهي مركز مقاطعة، ومدينة حدودية، وميناء مهم على نهرَيْ آمور، وزيي.

الباخرة مورافيوف، 29 يونيو 1890

هناك خنافس مضيئة تطير في قمرتي مثل الشُهب، وتبدو كما لو كانت ومضات كهربية. وعبر بحيرة أمور يسبح الماعز البري خلال النهار. الذباب هنا ضخم للغاية. أتقاسم قمرتي مع رجل صيني، صن ليو لي، هو لا يتوقّف عن إخباري كيف أنه -في الصين- عند اقتراف أتفه الأشياء قد يتعرّض المرء للإعدام. ليلة أمس دَخَّن الأفيون، واستمرَّ يتحدَّث وهو نائم طوال الليل، وحرمني من النوم.

وفي السابع والعشرين من الشهر، تجوَّلت في قرية صينية تُدعى أيجون. شيئاً فشيئاً بدا كما لو أنني أدلف إلى عالم خيالي رائع.

الباخرة تهتزّ، من الصعب أن أكتب.

غداً سأصل إلى هاربار وفسك. بدأ الرجل الصيني الغناء وفق نوتة موسيقية دَوَّنها على مروحته الورقية.



تشيخوف جالساً وإلى اليسار أخوه ألكسندر، في عام 1882

3

إلى إخوته

(إلى ميشا)

تاجانروج، 1 يوليو، 1876

أخي العزيز ميشا،

استلمت رسالتك وأنا في حالة يرثى لها من الضيق والضجر، وكنت جالساً عند البوابة أتثاءب، وبناءً على ذلك تستطيع أن تقدِّر وقع تلك الرسالة عليّ. أسلوبك جيد، ولم أجد في الرسالة أيّ خطأ إملائي. لكنّ هناك شيئاً واحداً لم يعجبني، لماذا أطلقت على نفسك عبارة «أخوك الذي لا قيمة أو أهمية له»؟ ربّما تكون أدركت ضآلتك، ولكن أمام الربّ، وربّما أمام الجمال والذكاء والطبيعة، ولكن ليس أمام البشر. فأمام الرجال يجب أن تشعر بسموّ منزلتك. لماذا؟ لأنك لست وضيعاً، أنت رجل متواضع، أليس كذلك؟ حسناً، عليك أن تنظر إلى نفسك بتقدير أكثر، فأنت رجل متواضع، وتعرف أن الرجل المتواضع ليس كمّاً مهملاً.

لا تشعر بالخزي «لكونك وضيعاً» عند «إدراك أنك بلا قيمة».

من الجيد أنك تقرأ. اكتسب عادة القراءة. فسيحين الوقت الذي تعرف فيه قيمة هذه العادة. هل جعلتك قراءة رواية «مدام بييشرستو» تبكي مدراراً؟ لقد قرأتها مرة، ومنذ ستة شهور أعدت قراءتها بغرض دراستها، وبعد القراءة انتابني إحساس كريه يشبه ما نشعر به نحن -البشر الفانين- عندما نفرط في تناول الزبيب أو الكشمش. اقرأ «دون كيشوت»، إنها شيء رفيع المستوى، إنها من تأليف سرفانتس، والذي يقال إن له منزلة شكسبير نفسها. وأنصح إخوتي أن يقرأوا -إذا لم يكونوا قد فعلوا ذلك فعلاً- مؤلف تورجينيف؛ «هاملت ودون كيشوت». لن تفهمه يا عزيزي. وإذا أردت أن تقرأ كتاباً مسلّياً في أدب الرحلات، اقرأ كتاب «الفرقاطة بالادا» (The Frigate Pallada) لـ«جونتشاروف».

سأجلب معي طالباً، سيقيم معنا في المنزل تحت رعايتنا، مقابل عشرين روبيلاً في الشهر. أعرف أن هذا المبلغ غير كاف، إذا ما أخذنا في الاعتبار سعر الطعام في موسكو، وأن أمّنا واهنة لتطعم وافدين.



نيكولاي بافلوفيتش تشيخوف (1858 – 1889)، الشقيق الأكبر لتشيخوف. كان فناناً تشكيلياً موهوباً. توفي إثر إصابته بالدرن الرئوي.

(إلى نيكولاي)

موسكو، 1886

أنت دائم الشكوى من أن الناس «لا يفهمونك»!. ولم يشكُ جوته ونيوتن من ذلك. فقط المسيح اشتكى منه، لكنه كان يتحدّث عن العقيدة التي جاء بها، وليس عن نفسه. إن الناس يفهمونك جيداً. وإذا لم تفهم نفسك، فليس ذلك خطأهم.

أؤكِّد لك -كأخ وصديق- أنني أفهمك وأتفهَّم مشاعرك. أعرف خصالك الحميدة مثلما أعرف أصابعي الخمسة، إنني أقدِّرها واحترمها للغاية. وإذا أردت إثباتاً لزعمي هذا، فبوسعي أن أعدّها لك. أظنّ أنك عطوف لدرجة اللين، شهم، إيثاري، ومستعدّ لمقاسمة آخر مليم معك، ولست حسوداً أو حقوداً، طيب القلب، تعطف على البشر والحيوانات، جدير بالثقة، لا تحمل ضغينة أو تنافق، ولا تتذكَّر الإساءة، ولديك هبة من السماء قلّما يحظى بها الآخرون، لديك الموهبة. وتضع الموهبة في منزلة فوق ملايين البشر، لأنه على ظهر الأرض -فقط- هناك فنّان بين كل مليوني شخص. تضع موهبتك في منزلة خاصّة، حتى لو كنت ضفدعاً أو عنكبوتاً سيحترمك الناس، لأن الموهبة تغفر أي شيء.

لديك إخفاق واحد، ويعود إليه زيف وضعك، وتعاستك واضطراب أمعائك. ويتمثَّل هذا الإخفاق في افتقارك التامّ للثقافة. سامحني، من فضلك، لكن -كما تعرف- للحياة شروطها. فمن أجل أن تعيش مرتاحاً بين المتعلِّمين، ولتتمكَّن من معايشتهم بسعادة، يجب أن تحوز قدراً

محدّداً من الثقافة. إن الموهبة لتدخلك في مثل تلك الدائرة، فأنت تنتمي إليها، لكن، يتمّ سحبك بعيداً عنها، لتتأرجح بين المثقَّفين والمستأجرين.

وحسب رؤيتي، يجب أن يستوفي المثقَّفون الشروط التالية:

1- احترام الجانب الإنساني في الشخصية، ولهذا السبب هم دائماً ودودون، دمثون، مهذَّبون، ومستعدّون للعطاء. إنهم لا يتشاجرون بسبب مطرقة أو قطعة مفقودة من المطاط الهندي، وإذا عاشوا مع أحد، لا يعدّون ذلك منحة منهم، ويرحلون دون أن يقولوا «ليس بوسع أحد أن يعيش معك». إنهم يصفحون عن الضوضاء والبرودة واللحم المقدَّد والنكات ووجود غرباء في منزلهم.

2- يتعاطفون، ليس فقط مع المتسوِّلين والقطط. وتنفطر قلوبهم لما يرونه أو لا يرونه. إنهم يسهرون الليل لمساعدة شخص ما، ولدفع نفقات الأخوة في الجامعة، ولشراء الملابس لأمهاتهم.

3- إنهم يحترمون ممتلكات الآخرين، ولهذا يسدِّدون ما عليهم من ديون.

4- إنهم مخلصون، ويخشون الكذب كما تُخشى النار. إنهم لا يكذبون، حتى ولو في الأشياء الصغيرة. فالكذب إهانة للمستمع ويضعه في منزلة أدنى بالنسبة للمتحدّث. لا يتظاهرون، بل لا يتغيَّر سلوكهم في الشارع عنه في المنزل، ولا يتعمّدون الاستعراض أمام رفاقهم الأقلّ منهم منزلة. لا يثرثرون، ولا يثقلون على الآخرين بثقتهم بأنفسهم. واحتراماً منهم للآخرين، فإنهم يميلون إلى الصمت أكثر من الكلام.

5- لا يحطّون من قدر أنفسهم للحصول على شفقة الآخرين. ولا يلعبون على شغاف قلوب الآخرين، ليجعلوهم يتنهّدون ويستحوذون عليهم. ولا يقولون «يُساء فهمي»، أو «لقد أصبحت شخصاً من الدرجة الثانية»،

لأن كل ذلك ليس سوى سعي وراء تأثير رخيص، ومبتذل وتافه وزائف.

هم لا يعانون من الخيلاء والغرور. ولا يحفلون بتلك الماسات الزائفة (أقصد المشهورين)، ولا يأنفون من مصافحة السكّير، وينصتون إلى صيحات إعجاب مُشاهد مشتت في معرض للصور الفوتوغرافية، ويتردّدون كثيراً إلى الحانات.

6- وإذا أبرموا صفقة متواضعة، فإنهم لا يتباهون كما لو كانوا عقدوا صفقة بمئة روبيل، ولا يعطون لأنفسهم أولوية على الآخرين. إن الموهوب الحقيقي دائماً ما يحافظ -دوماً - على اندماجه بين الجموع، وبعيداً قدر المستطاع عن الإعلان. وحتى كرايلوف، قال -سابقاً- إن البرميل الفارغ يصدر عنه صدى صوت أكثر من البرميل الممتلئ.

7- إذا كانت لديهم موهبة يحترمونها. ويضحّون في سبيلها بالراحة والنساء والخمر والخيلاء. إنهم فخورون بموهبتهم، وبالإضافة إلى ذلك، من الصعب إرضاؤهم.

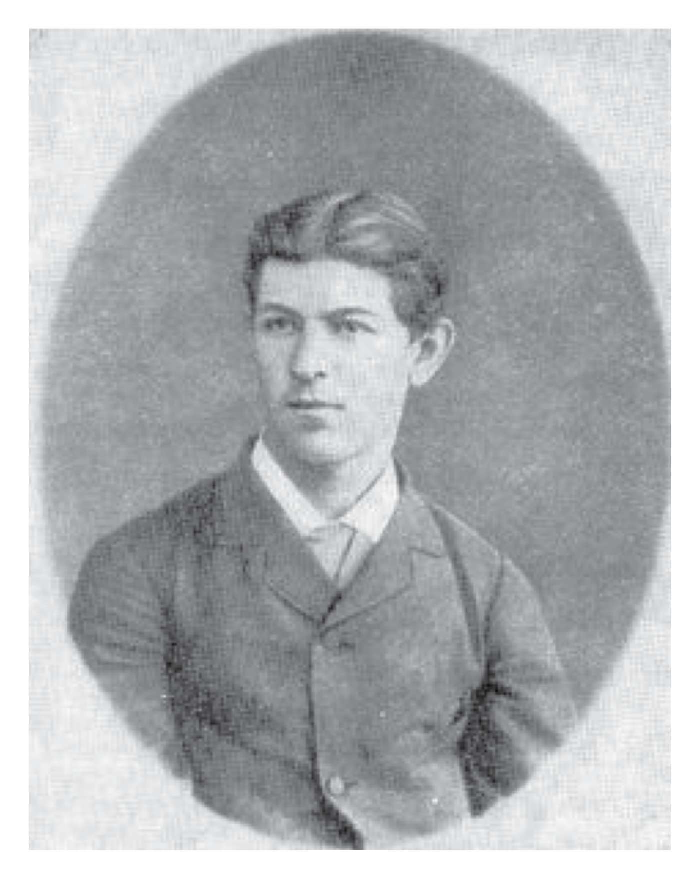
8- يُنمّون الحسّ الجمالي داخلهم. ولا يستطيعون الذهاب للنوم بملابسهم، ولا يتحمّلون رؤية الشروخ ممتلئة بالحشرات، أو تنفّس هواء فاسد، أو السير على أرض عليها بُصاق، أو أن يطهوا وجباتهم على موقد زيتي. ويسعون قدر استطاعتهم إلى كبح جماح رغباتهم الجنسية والسموّ بها. وليس كل ما يرغبونه في المرأة أن تكون رفيقة فراش، ولا يطلبون المهارة التي تظهر عبر المضاجعات المتتالية. إنهم يرغبون، -خاصة الفنانين منهم- بالطزاجة، والأناقة، والإنسانية، والاحتواء الأمومي. إنهم لا يشربون الفودكا طوال ساعات النهار والليل، ولا يتشمّمون رفوف الخزانات، لأنهم ليسوا خنازيراً، ويعلمون أنهم ليسوا كذلك. ويتناولون الشراب -فقط- عندما يكونون غير مرتبطين بعمل أو في عطلة.

وهذا بعض ما يجب أن يكون عليه المثقّفون. فلكي تكون مثقَّفاً، ولا تكون في مرتبة أدنى من المحيطين بك، لا يكفي أن تقرأ «أوراق بيكويك»، وتحفظ منولوجاً من «فاوست».

ما يحتاجه المثقّف هو العمل الدائم، ليل نهار، والقراءة المستمرّة، والدراسة، والإرادة؛ فكل ساعة هي ثمينة بالنسبة له.

تعال إلينا، وحطِّم زجاجة الفودكا، وتمدَّد، وابدأ القراءة. اقرأ أعمال تورجنيف، إذا أردت، التي لم يسبق لك أن قرأتها. يجب أن تتخلّى عن تفاهتك، فأنت لست طفلاً، فعما قريب ستبلغ الثلاثين. لقد حان الوقت!.

أنتظرك... نحن جميعاً ننتظرك.



إيفان بافلوفيتش تشيخوف (1861 – 1922): الشقيق الأصغر لتشيخوف. عمل بالتدريس. كان عضواً فعّالاً في كثير من الجمعيات الأهلية المهتمّة بالفقراء وأطفال المعلِّمين.

(إلى إيفان)

البندقية، 24 مارس 1891

أنا الآن في البندقية. وصلت هنا منذ يومين قادماً من فيينا. ولم أرَ في حياتي مدينة بمثل روعة فينسيا. إنها في غاية السحر والتألّق والبهجة، إنها مفعمة بالحياة. وبدلاً عن الشوارع والطرقات تمتد القنوات، وبدلاً من سيارات الأجرة، يسير الجندول. والعمارة هنا مذهلة، وتكاد لا توجد بقعة هنا تخلو من الملامح التاريخية أو الفنية. وعلى متن الجندول، وعبر القنوات، يمكنك أن تشاهد قصر الدوق حيث عاشت ديدمونة، وكذلك بيوت كثير من الرسّامين، والكنائس. وفي الكنائس توجد منحوتات ورسومات لم نحلم بها حتى. فعلاً إنها مدينة فاتنة.

وطوال اليوم، من الصباح الباكر وحتى المساء، لا أغادر الجندول، ولا أتوقف عن التجوُّل، أو أدور بتؤدة حول ميدان سان مارك المشهور. والميدان منبسط ونظيف كما لو كانت أرضيته من الباركيه. وهنا، في سان مارك، ما تعجز الكلمات عن وصفه، قصر الدوق وغيره من البنايات التي تجعلني أشعر كما لو كنت أنصت إلى جوقة تغني، أستشعر الجمال المذهل والمتعة فيها.

أما مساءً، فيا إلهي، إنها تتَّسم بغرابة وروعة لا يمكن احتمالهما: الانتقال بالجندول، الدفء، الهدوء، والنجوم، ولا وجود للخيول في البندقية، ولذلك يعمّ السكون كما في الريف. تروح الجنادل وتجيء، ثم يمرّ جندول مُضاءً بالفوانيس. وعليه آلات مختلفة؛ دوبل باس، وكمانات

وجيتار، وماندولين، وبوق، بالإضافة إلى سيدتين أو ثلاث، والعديد من الرجال، ويتعالى منه الغناء والموسيقى. يغنّون مقاطع من الأوبرا. يالها من أصوات! وما تكاد تتقدَّم قليلاً حتى يمرّ إلى جوارك جندول ممتلئ بالمغنّين، ثم جندول آخر وآخر، ويتشبع الهواء، حتى منتصف الليل، بمزيج من الأصوات المنبعثة من أوتار الكمانات وأصوات التينور، وجميع أنواع الأصوات التي تمسّ شغاف القلب.

ميريزكوفسكي، الذي قابلته هنا، مبتهج للغاية ومأخوذ بما حوله. فبالنسبة لنا نحن -الروس المقهورين- من السهل أن تذهب عقولنا في عالم من الجمال والثروة والحرية. وإنني أتوق إلى البقاء هنا للأبد، لدرجة أنه عند حضور القدّاس في الكنائس، وعندما أنصت للأرغن كنت أتوق لأن أصبح كاثوليكياً.

إن مقابر الكانوفا والتيتيان رائعة للغاية. وهنا يدفنون الفنانين العظماء في الكنائس كما الملوك، وهنا لا يستخفّون بالفن كما هو حالنا، فالكنائس توفِّر الحماية والدعم للوحات التصويرية والتماثيل مهما كانت عارية.

وفي قصر الدوق هناك لوحة، فيها حوالي عشرة آلاف شكل بشري.

اليوم الأحد. وستقوم فرقة موسيقية بالعزف في ميدان سان مارك.

وإذا سنحت لك فرصة القدوم إلى البندقية، فستكون أفضل شيء يحدث في حياتك. ويجب أن ترى الزجاج هنا (كان أخوه إيفان يعمل مدرِّساً في مدرسة ملحقة بمصنع زجاج). فزجاجاتك بشعة مقارنة بالموجود هنا، لدرجة أنها تدفعني للغثيان بمجرَّد التفكير فيها.

وإلى أن أكتب لك قريباً، أقول لك وداعاً.



إلكساندر بافلوفيتش تشيخوف (1855 – 1913): الأخ الكبير لتشيخوف. عمل صحافياً، وكذلك مارس الكتابة الأدبية. توفِّي إثر إصابته بسرطان الحنجرة.

(إلى ألكسندر)

موسكو، 20 نوفمبر 1887

حسناً، انتهى العرض الأول (إيفانوف) وسأخبرك عنه بالتفصيل.

وعلى سبيل البداية، وعدني «كورش» بعشر بروفات، لكنه لم يُقدِّم لي سوى أربعة، وبينها اثنتان فقط يمكن أن نطلق عليهما بروفة، أما الأخريان فلقد كانتا بمثابة تبارٍ بين المثلين في الشجار والسباب. فقط دافيدوف وجلاما كانا يعرفان دوريهما، أما الآخرون فكانوا على ثقة بمُلقِّنهم وقناعتهم الداخلية.

الفصل الأول: أقف خلف خشبة المسرح في مقصورة صغيرة تشبه الزنزانة. وأسرتي في مقصورة البنوار يرتجفون. وعلى خلاف توقّعاتي، كنت هادئاً وواعياً أن أتجنَّب الإثارة. كان الممثِّلون عصبيين ومثارين، ويخبط بعضهم البعض الآخر. ارتفع الستار.. ودخل الممثِّل المختار لهذه الليلة. وتسبّب تردّده، ونسيانه لدوره، والإكليل الذي قُدِّم له في جعل المسرحية غريبة عليّ بداية من الجمل الأولى. حتى كسيليفسكي، الذي توقّعت منه الكثير، لم يقدِّم جملة حوار واحدة بشكل صحيح، ولا جملة واحدة بالفعل. نطق بأشياء من تأليفه الخاص. ورغم هذا، ورغم ارتباك مدير خشبة المسرح، حقَّق في الفصل الأول نجاحاً هائلاً. وتعالت صيحات كثيرة.
الفصل الثاني: كثير من الناس على خشبة المسرح. زوّار. لم يكن الممثّلون ملمّين بأدوارهم، وارتكبوا أخطاءً، وتبادلوا حديثاً بلا معنى.

كانت كل كلمة تجرحني مثل سكّين تصيب ظهري. لكن، أوه يا موزيه!

حتى هذا الفصل لاقى نجاحاً. ونادى الجمهور جميع الممثلين، بل نوديتُ أنا مرّتين قبل إغلاق الستار: تهانينا ومزيد من النجاح.

الفصل الثالث: لم يكن التمثيل سيّئاً. وتحقَّق مزيد من النجاح. وكان عليّ أن أصعد إلى خشبة المسرح ثلاث مرات قبل إنزال الستار، وفي كل مرة كان دافيدوف يصافحني، بينما جالما، مثل مانيلوف، كانت تضغط يدي إلى قلبها؛ إنه الابتهاج بانتصار الموهبة والفضيلة.

الفصل الرابع: المشهد الأول، لم يكن سيّئاً. وتوالى النداء قبل رفع الستار مجدَّداً. وبعدئذ فاصل طويل مملّ. لم يكن المتفرِّجون معتادين على مغادرة مقاعدهم والتوجُّه إلى البار بين المَشاهد، بل كانوا يبقون في أمكانهم مغمغمين. وارتفع الستار. الموسيقى تعزف، عبر القوس تظهر طاولة العشاء (حفل زفاف). تعزف الفرقة الموسيقية مقطوعات بهيجة. يخرج أشابين العريس سكارى، وهكذا ترى أنهم يظنون أنفسهم يتصرّفون -لابُدَّ- مثل البهلونات، ويرقصون في مرح. وأصابتني الممازحات الخشنة والأجواء المشابهة لأجواء الخمّارات، باليأس. وعندئذ خرج كيسليفسكي، وكان الحوار في هذا الجزء حواراً شعرياً ومثيراً للمشاعر، لكن كيسليفسكي لم يكن ملمّاً بدوره، وكان سكرانَ، فبدا مثل عامل غير بارع. وتحوَّل الحوار الشعري القصير إلى شيء ما مملّ وكريه.

وفي نهاية المسرحية، يموت البطل لأنه لا يستطيع تجاوز ما تعرَّض له من إهانة. والمشاهدون الذين استبدَّ بهم الشعور بالبرد والإرهاق، لا يفهمون هذا الموت (أصرّ الممثِّلون عليه، وكانت لديّ نهاية أخرى). وتعالت النداءات على الممثِّلين وعليّ. وخلال إحدى النداءات سمعت

أصوات استهجان، لكن، سرعان ما ابتلعتها أمواج التصفيق ودقّ الأرض بالأقدام.
وإجمالاً، شعرت بالإرهاق والانزعاج. كان الأمر مثيراً للاشمئزاز رغم أن المسرحية لاقت قدراً معقولاً من النجاح...

وقال روّاد المسارح إنهم لم يسبق لهم -مطلقاً- أن رأوا مثل ذلك القلق في أي مسرح آخر، أو مثل تلك الحالة من التصفيق والاستهجان، أو سمعوا مثل تلك المناقشات بين الجمهور، كما حدث مع مسرحيتي. ولم يحدث قبل الآن مطلقاً في «كورش - Korsh's» أن نُودِي على المؤلِّف ليصعد إلى خشبة المسرح بعد الفصل الثاني.

24 نوفمبر

توقَّف كل شيء أخيراً، وعدت مجدَّداً إلى طاولة الكتابة متفرِّغاً لتأليف القصص بروح تغمرها السكينة. لا يمكنك تخمين كيف كان الأمر! لقد أخبرتك، توّاً، أنه في العرض الأول ساد الشعور بالإثارة بين الجمهور وعلى خشبة المسرح ولدى الملقِّن، الذي عمل طوال اثنين وثلاثين عاماً دون أن يشعر به أحد مطلقاً.

أحدثوا ضجيجاً وصراخاً، وصفّقوا، وغمغموا في استياء. وفي البار وصل الأمر إلى حَدّ العراك. وفي شرفة المسرح أراد الطلاب إلقاء أحد الأشخاص منها، وكذلك تَمَّ صرف شخصين بالبوليس. سادت الإثارة جميع الأجواء.

كان الممثِّلون في حالة من التوتُّر العصبي. وكل ما كتبته لك ولماسلاف حول تمثيلهم وحالتهم المزاجية لا ينبغي أن تخرج عنكما. فهناك الكثير مما يجب على المرء أن يتفهّمه ويغفره.. فلقد اتّضح أن للممثِّلة، التي كانت تقوم بالدور الرئيس في مسرحيتي، ابنة كانت مريضة للغاية، فكيف تستطيع أن تستوعب دورها وتتقمّص شخصيّتها؟ فعلت مجلة «كوربين – Kurepin»خيراً عندما امتدحت الممثِّلين.

في اليوم التالي للعرض، كانت هناك متابعة صحافية قام بها بيوتر كتشاييف في مجلة «موسكوفيسكي لوستوك – Moskovsky Listok». ولقد نعت مسرحيتي بأنها ساخرة بوقاحة وخليعة للغاية. بينما امتدحتها مجلة «فيدوموستي – Vyedomosti».

وإذا قرأت المسرحية، لن تكتشف مصدر تلك الإثارة التي وصفتها لك،

فلن تجد فيها شيئاً خاصّاً.

وأكَّد لي كل من نيكولاي وشيهتل وليفيتان، وجميعهم رسّامون، أنه كان واضحاً للغاية غرابة العرض المسرحي. وفي القراءة لا يلاحظ المرء شيئاً كهذا.

إركوتشك، 5 يونيو 1890

أخي الأوروبي

بالطبع من السيّئ أن تعيش في سيبريا، لكن، من الأفضل أن تعيش في سيبريا وتشعر أنك رجل حسن السمعة والخلق، بدلاً من أن تعيش في بطرسبرج بسمعة ملوَّثة لأنك سكّير ووغد. دون الإشارة إلى الرفقة الحالية.

سيبريا بلد كبير وبارد. فمهما سرت فيها فلن تصل إلى نهايتها. ولم أرَ شيئاً جديداً أو شائقاً، ورغم ذلك اكتسبت خبرة كبيرة. فلقد واجهت فيضانات الأنهار والبرودة والوحل الذي من الصعب تجاوزه، والجوع والحاجة إلى النوم.. ومثل تلك الأحاسيس لا تستطيع الحصول عليها في موسكو ولو مقابل مليون روبيل! عليك أن تأتي إلى سيبريا. اطلب من السلطات أن تنفيك إلى سيبريا.

أفضل المدن السيبرية هي إركوتشك. تومسك لا تستحق أن تنفق فيها فارزنجاً نحاسياً، والضواحي ليست أفضل من كريبكايا التي تعيش فيها ضجراً للغاية. وأكثر الأشياء غرابة أنك لا تجد ما تأكله في تلك الضواحي،

وآه يا عزيزي، كم يكون المرء واعياً بمثل هذه الأشياء خلال الرحلة! وذلك عند الوصول إلى مدينة ما وشعورك أنك قادر على التهام جسد بأكمله، وللأسف لا تجد السجق أو الجبن أو اللحم أو حتى الرنكة، لكن -فقط- البيض واللبن الخالي من الطعم والنكهة.

وإجمالاً أنا راضٍ عن رحلتي، ولست نادماً على العودة. السفر شاقّ، لكن

الراحة بعده شيء مبهج. أرتاح مستمتعاً.

من إركوتشك سأتوجّه إلى بيكال، وسأعبر تلك البحيرة على متن باخرة، والمسافة من «بيكال» إلى «أمور» تبلغ حوالي ألف فرست، ومن هناك سأتوجّه بالباخرة إلى المحيط الهادي؛ وأوّل ما سأفعله عند وصولي هو الاستحمام وتناول المحار.

وصلت هنا أمس، وذهبت -أوّلاً- إلى الحمّام، ثمّ توجّهت إلى الفراش. أوه، كم استغرقت في النوم! ولم أعرف قيمة النوم إلا الآن.

أباركك بكلتا يديّ.

أخوك الآسيوي

تشيخوف

نيس، 23 فبراير 1898

لقد أساءت مجلة «نوفوي فريميا» تناول قضية زولا. لقد تبادلت والرجل العجوز الرسائل حول الموضوع (وكنا معتدلَيْن للغاية، رغم ذلك)، وتجاوز كلانا ذلك الموضوع.

لا أرغب في الكتابة، ولا أريد رسائله التي يداوم فيها على تبرير افتقار أسلوبه للياقة بأنه يحبّ النظام العسكري، ولا أرغب فيها لأنني سئمتها كلها منذ زمن بعيد. أحبّ النظام العسكري أنا أيضاً، لكنني لن أحبها إذا سمحت صحيفة للـ cactuses بطباعة رواية زولا في الملحق دون سبب، بينما ينهالون بالشتائم على زولا نفسه في الصحيفة، وما الغاية من ذلك؟ وهذا ما لم يعرفه أي من الـ cactuses مطلقاً، لدافع نبيل وللطهارة الأخلاقية. وبعامة، لإهانة زولا خلال محاكمته، وإعلان أنه غير جدير بأن يكون أديباً.

ألكسين، يوليو 1891

أخي المصوِّر غزير الإنتاج،

وصلتني رسالة منك منذ فترة طويلة، وبرفقتها صور سيماشكو، لكنني لم أردّ إلى الآن، لأنني طوال تلك الفترة أحاول صياغة الأفكار الكبيرة المناسبة للردّ الذي أبتغيه.

جميع أهلنا على قيد الحياة وبخير حال، ونحن دائمو الحديث عنك، ونأسى لأن غزارة إنتاجك تحول بينك وبين المجيء إلينا، حيث يرحّب الجميع بوجودك للغاية، وكذلك أبي.

بينما أكتب إليك، غادر إيفانيجورتش، ويعيش معنا الآن. وسوفرين زارنا مرّتين، وتحدَّث عنك، واصطاد السمك. وأنا مشغول -للغاية- بالعمل مع سَخالين، وأشياء أُخرى ليست أقلّ إثارة للضجر، وكثير من العمل الشاق.

أحلم بأن أربح أربعين ألفاً، لأتوقّف تماماً عن الكتابة، التي أزهدها، وذلك لأشتري قطعة صغيرة من الأرض، وأعيش مثل ناسك في معتزل مثالي، على أن تكون أنت وإيفان في الجوار، أحلم أن أقدِّم خمسة عشر أكراً لكل منكما، يا قريبيَّ الفقيرين. فإجمالاً أحيا حياة موحشة، وسئمت العمل الدائم بالكتابة للحصول على مقابل ضئيل، بينما يتقدَّم بي العمر حثيثاً.

قصّتك الأخيرة -في رأيي،وقد شاركني إياه سوفرين -قصّة جيدة. لماذا أنت مقلّ في كتابة القصص؟.

ف. أ. فاجنر، المتخصِّص في علم الحيوان، والحاصل على درجته

العلمية معك، يعيش معنا في المجمع السكني نفسه.

إنه يكتب أطروحة جافّة للغاية. وكذلك يعيش معنا في المجمَّع السكني نفسه، الفنان كيسيليوف. ونخرج معاً في جولات مسائية نتبادل خلالها النقاش الفلسفي.

مليهوفو، 15 أبريل 1894

لقد عدت من تافريدا الحارقة، وأنا الآن جالس على الضفاف الباردة لبركتي. الجوّ دافئ للغاية، ويشير الترمومتر إلى أن درجة الحرارة تصل إلى ستّ وعشرين درجة مئوية.

أنا منشغل بالعناية بالأرض: أقوم بتعبيد طرقات جديدة، وأزرع الزهور، وأقطع الأشجار الذابلة، وأطارد الدجاج والكلاب لإخراجها من الحديقة. إن الأدب يقوم بدور إراكيت، الموجود دائماً في الخلفية. لم أعد أرغب في الكتابة، وحقيقة، من الصعب الجمع بين الرغبة في الحياة والرغبة في الكتابة.



ميهائيل بافلوفيتش تشيخوف (1865 – 1936): الشقيق الأصغر لتشيخوف. عمل ضابطاً في الشرطة. وكانت له بعض المقالات الصغيرة في مجلّات الأطفال تحت اسم مستعار (م. بوهيميان).

(إلى ميهائيل)

يالطا، 6 فبراير، 1899

ضجر أنا؛ أقرأ «كتاب حياتي - the book of my life» للكاهن بروفيري. وهذه فقرة تتعلَّق بالحرب:

«إن الجيوش النظامية العاملة، في وقت السلم، هي جراد يلتهم خبز الشعب مخلّفة فراغاً كريهاً في المجتمع، بينما -في وقت الحرب- هي آلات قتال اصطناعية، وعندما تنمو وتتطوّر، تضيع الحرية أمام الأمن والمجد الوطني!

إنها المدافع غير القانوني عن الظلم والقانون المُتحيِّز، وعن الحظوة والطغيان».

(كُتِب ذلك في أربعينيات القرن التاسع عشر).

نيس، الاثنين، في أسبوع الآلام، أبريل، 1891

نحن الآن في نيس، على ساحل البحر. الشمس مشرقة، والجو دافئ، والأخضر يكسو كل الأمكنة، والجوّ مشبع بالأريج الفوّاح. وتستغرق الرحلة من نيس إلى المدينة ذائعة الصيت؛ موناكو، ساعة فقط. وفي موناكو فندق مونت كارلو، حيث يُلعَب القمار «الروليت». لك أن تتخيّل حجرات «ذا هول أوف نوبيليتي - the Hall of Nobility»، لكنها أكبر وأجمل وأفخم. هناك مناضد كبيرة، وعليها يتمّ لعب الروليت، وهذا اللعبة سأصفها لك عند عودتي. أول أمس ذهبت إلى مونت كارلو، حيث لعبت وخسرت. اللعبة مذهلة للغاية. فبعد الخسارة، تأمّلت، أنا وسوفرين فيلس، هذه اللعبة، وتوصلنا إلى نظام يضمن المكسب لمن يتّبعه. وذهبنا أمس، وكان بحوزة كل منا 500 فرنك فرنسي، وفي الجولة الأولى راهنت وربحت قطعتين ذهبيتين، وتكرَّر ذلك مرة بعد أخرى حتى امتلأت جيوب صدريتي بالذهب. وأصبح بحوزتي نقوداً فرنسية تعود لعام 1808، بالإضافة إلى عملات نمساوية ويونانية وإيطالية وبلجيكية.

لم يسبق لي أن رأيت هذا الكَمّ من العملات الذهبية والفضية. وكنت قد بدأت اللعب في الخامسة مساءً، وعند العاشرة لم يكن في جيبي حتى فرنك واحد، ولم يهوِّن الأمر عليّ سوى وجود تذكرة العودة إلى نيس في جيبي. وهكذا كان الأمر يا أصدقائي! وأعرف أنك ستقول: «ياله من سلوك وضيع! فنحن فقراء للغاية، بينما هو في الخارج يلعب الروليت»، وهذا قول عادل تماماً، وأسمح لك أن تنتقدني بعنف كما تشاء. لكنني -شخصياً- سعيد للغاية بما فعلته. فبأي حال، الآن أصبح بوسعي أن أحكي لأحفادي أنني لعبت الروليت، وخبرت شعور الإثارة عند المقامرة.

وجوار الكازينو حيث تلعب الروليت، هناك مكان آخر للنصب على الناس؛ المطاعم. إنها تستنزف المرء ببشاعة وتقدِّم له طعاماً رائعاً. فكل طبق عبارة عن قطعة فنية احترافية، يكاد المرء ينحني أمامها إظهاراً للإعجاب ويترَدَّد في تناولها من فرط إعجابه بها. فكل قضمة مغموسة بخليط من الخرشوف والكمأ ولسان العصفور من كل نوع. ويا إلهي الرحيم! كم هي حقيرة وكريهة هذه الحياة، بكل خرشوفها ونخيلها ورائحة أزهار البرتقال التي تفوح منها! أحب الثروة والرفاهية، لكن الرفاهية هنا، رفاهية بهو المقامرة، تذكِّرني برفاهية دروة المياه.

هناك شيء في الجوّ يجترح شعور المرء بالاحترام، وينال من قيمة المشهد، وصوت موج البحر والقمر.

أمس، الأحد، ذهبت إلى الكنيسة الروسية الموجودة هنا. والغريب أنهم استخدموا جريد النخل بدلاً من الصفصاف، وجوقة من السيدات محلّ جوقة الغلمان، مما يضفي على الإنشاد إيقاعاً أوبرالياً. إنهم يضعون عملات أجنبية في الصحن، ويتحدَّث حامل الصولجان والشمّاس كلاهما اللغة الفرنسية، ... إلخ.
ومن بين جميع الأماكن التي زرتها إلى الآن، للبندقية أجمل الذكريات لديّ. فـ«روما» إجمالاً قريبة الشبه من هاركوف، ونابولي مكان بذيء. والبحر لا يجتذبني، لأنني مللته من طول علاقتي به خلال شهرَيْ نوفمبر وديسمبر.
أشعر كما لو كنت أسافر طوال عام كامل. فلم أكد أعود من سَخالين حتى توجَّهت إلى بطرسبرج، ثُمّ إلى بطرسبرج مجدَّداً، وبعدها إلى إيطاليا...
إذا لم أصل عند حلول عيد الفصح، تذكَّرني في صلواتك، وعندما تفطر، وتقبل تهانيّ من بعيد، وتأكيدي أنني سأفتقدك للغاية عشية عيد الفصح.

بطرسبرج، 18 أكتوبر 1896

لقد فشلت المسرحية فشلاً ذريعاً، وصاحب انهيارها دويٌّ هائل. وسيطر شعور هائل وموتِّر بالعار والارتباك في المسرح. وجاء تمثيل جميع الممثِّلين سيّئاً للغاية. والمغزى الأخلاقي لها أنه يجب ألّا أكتب مسرحيات بعد الآن.

يالطا، 26 أكتوبر 1898

أسعى الآن إلى شراء قطعة أرض في يالطا لأبني عليها بيتاً أقضي به فترات الشتاء. وتوصَّلت إلى هذا القرار بسبب التنقُّل المستمر بين حجرات الفنادق، وحمّاليها، ومصادفات الطهي، إلى آخر هذه الأشياء. وستقضي أمّي الشتاء بصحبتي. لا وجود للشتاء هنا، فنحن في نهاية أكتوبر، لكن الزهور وغيرها من النباتات متفتِّحة، والأشجار خضراء، والطقس دافئ.

يوجد كثير من الماء هنا، ولن أحتاج شيئاً بعيداً عن المنزل، لا حاجة لأي منشآت من أي نوع، فكل شيء سيكون تحت سقف واحد. وسيتمّ تخزين الفحم والخشب وغير ذلك من أشياء في القبو. والدجاجات لن يعوقها شيء عن التجوال طوال العام، وهكذا، لا حاجة لبناء منزل خاص لها، يكفي أن أقوم بتسييج جزء لها. وبالقرب من هنا يوجد مخبز وسوق شرقية، وسيكون ذلك مناسباً لأمّي ومريحاً لها كذلك. وبالمناسبة، بوسع أمّي أن تتسلّى بجمع الفطر الصالح للطهي وboletuses خلال فصل الخريف. لن أقوم بتشييد المنزل بنفسي، سيتولّى المهندس المعماري هذا الأمر. وستكون جميع المنازل جاهزة في أبريل القادم. والأرض التي اشتريتها مناسبة لبناء منزل ريفي. فالمنزل ستحيط به حديقة وأحواض زهور وأخرى للخضروات. كذلك سيصل خط السكك الحديدية إلى يالطا العام القادم.

وبالنسبة للزواج الذي تتوق إليه، ماذا بوسعي أن أقول لك؟ فأن تتزوج يعني أنك تحبّ. لأن الزواج من فتاة لأنها جميلة، يشبه شراء شيء ما لا يرغب فيه المرء، فقط لأنه وجده في السوق، ووجد أنه من صنف جيِّد.

إن أهم رابط أسريّ هو الحبّ، وما سواه من جاذبية جنسية وجسدية وغير ذلك من أشياء، إنما هي مصدر حزن ووحشة، ولا يمكن التنبُّوء بنتائجها مهما بلغت مهارتنا في إجراء الحسابات. وبناء على ذلك، فالأمر لا يتعلَّق بجمال البنت بل بأن تُحَبّ، فتجاهَلْ هذه الصفة لأنها لا تعني سوى القليل.

مسرحية «العم فانيا» تحقِّق نجاحات في جميع أنحاء الإقليم؛ ولذلك لا يمكن -أبداً- أن أعرف أين سأربح، وأين سأخسر، ولا أعتمد على تلك اللعبة على الإطلاق.

28 يوليو 1888

على البحر الأسود وبحر قزوين، وبعيداً عن الحياة.. باخرة نقل بضائع صغيرة الحجم ومتهالكة، اسمها «دير»، تنطلق بأقصى سرعة من سوهوم إلى بوتي. الوقت منتصف الليل. والقُمرة الوحيدة في هذه الباخرة حارة ورطبة للغاية. وهناك رائحة شيء يحترق تتصاعد من حبل ما، أو سمكة ما، أو من البحر. صوت المحرِّك يصل إلينا مدوِّياً «بووم بووم بووم». وعن الماكينات تصدر أصوات على سطح الباخرة أو من الأسفل. الظلمة تزحف متمايلة داخل القُمرة، والسرير يهتزّ إلى أعلى وإلى أسفل، بينما أسعى إلى تحويل انتباهي من الجوع إلى محاولة الاستلقاء على السرير، وإذا بمياه سلتزر ترتجع وصولاً إلى حلقي قبل أن تنزل إلى كعبي.

لم يكن من السهل انتقاء ملابسي في الظلام، واكتفيت بارتداء ملابسي سريعاً ومغادرة القمرة. ياله من ظلام! ارتطمت قدميّ ببعض قضبان الحديد غير المرئية، وبحبل كذلك، فأينما خطوت تتعثّر في براميل وأكياس وأسمال بالية، كذلك تدوس على رماد فحمي. وفي الظلام اصطدمت بشيء ما يتكوَّن من قضبان متوازية، إنه قفص مملوء بالأغنام التي سبق ورأيتها خلال النهار. كانت مستيقظة ومهتاجة تنصت إلى أصوات اهتزازات القارب. وإلى جوار القفص هناك جوادان تركيان مستيقظان كذلك... توجَّهت إلى السلالم المؤدِّية إلى منصّة ربّان الباخرة. كادت ريح قوية تطيح بقبّعتي من فوق رأسي، والباخرة تهتزّ. وكان الصاري أمام منصّة الربّان يهتزّ بانتظام وبطء مثل بندول الإيقاع، حاولت أن أحوِّل بصري عنه، لكن عينيّ لم تطاوعاني؛ تماماً مثل معدتي، وأصرَّتا على متابعة الأشكال المتحرِّكة... السماء والبحر غارقان في الظلمة، والشاطئ

غير مرئي، ويبدو سطح السفينة مثل بقعة من الظلمة. لم يكن هناك ولو مصدر ضوء وحيد.

خلفي نافذة، نظرت عبرها فرأيت رجلاً يتطلَّع -باهتمام- إلى شيء ما، ويُدير عجلة ما، وعلى وجهه تعبير كما لو كان يعزف السيمفونية التاسعة. وإلى جواري يقف الربّان، ممتلئ الجسد قليلاً، مرتدياً حذاءه الجلدي. تحدَّث إليّ عن المهاجرين القوقاز، وعن حرارة الجو، وعن عواصف الشتاء، وفي الوقت ذاته يتطلَّع إلى شيء ما في الظلام؛ يبدو بعيداً، وباتجاه الشاطئ.إذا به يقول لشخص ما: «يبدو أنك تنحرف كثيراً إلى اليسار مجدَّداً، لابدّ من وجود أضواء هنا. هل تراها؟». وإذا بشخص ما يجيب من وسط الظلمة: «لا يا سيدي»، ليردّ عليه: «تسلَّق، وتفقَّد الأمر».وإذا بكتلة من الظلمة تظهر فوق منصّة الربّان وتتسلّق بتؤدة. وفي غضون دقيقة سمعنا: «نعم يا سيِّدي».

تطلَّعت إلى اليسار حيث يُفترَض أن تأتي أضواء الفنار، واستعرت منظار الربّان، لكنني لم أرَ شيئاً. وبعد مرور نصف ساعة، ثم ساعة، لم يتغيَّر شيء. ولا يزال الصاري يتمايل بانتظام، والماكينات تتعالى أصواتها، والريح تعبث بقبَّعتي. لم تكن الظلمة حالكة، لكن هناك ما يدفع إلى الترقُّب.

وفجأة، قذف الربّان شيئاً ما، بعنف إلى مؤخِّرة الباخرة، وهو يصيح: «يالك من ماكينة لا نفع منك!».

صرخ بتوتُّر بأعلى صوته: «إلى اليسار، إلى اليسار..، إلى اليمين! ياااه!».

تعالت، بالأوامر أصوات غير مفهومة. وبدأت الباخرة تتحرَّك، وصدر صوت صرير عن الماكينات.«ياااه!»، صرخ الربّان. وعند مقدِّمة الباخرة

كان هناك ناقوس يدقّ، وعلى سطحها المعتم كانت هناك أصوات لأشخاص يجرون، ويتصادمون، ويصرخون في توتُّر. وعادت الباخرة «دير» مجدَّداً تنفث دخانها بصعوبة بالغة، وبدا أنها تسعى كي تتحرَّك إلى الخلف.

سألت: ما هذا؟ وتسلَّل إليّ شعور طفيف بالخوف. ولم أتلقَّ أية إجابة.

وإذا بي أسمع صياح الربّان: التصادم وشيك، يالها من ماكينة خردة! إلى اليسار.

ظهرت أضواء حمراء في المقدِّمة، وفجأة -وسط الضجيج- سُمِع صوت صفّارة، ولم تكن صادرة عن الباخرة «دير»، بل عن باخرة أُخرى. الآن أدركت: هناك تصادم وشيك! وقفت الباخرة «دير» تنفث دخانها وتهتزّ دون حركة، كما لو كانت في انتظار إشارة حتى تغرق، لكن، بمجرَّد أن فكَّرت في الوضع، كان في طريقه للتلاشي، فلقد ظهرت الأضواء الحمراء إلى يسارنا، وظهر للعيان ظلٌّ باخرة. كانت بمثابة جسد طويل أسود يكرّ بمحاذاتنا، وأضواؤها الحمراء تومض، وكذلك تطلق الباخرة صفارة مثقلة بالشعور بالذنب.

سألت الربان: أوف، ما اسم تلك الباخرة؟

نظر الربان بمنظاره إلى الباخرة التي تمرّ مثل ظلّ، ثمّ أجاب: إنها الباخرة «تويدي».

وبعد فترة صمت، بدأنا الحديث عن الباخرة «فيستا» التي اصطدمت بباخرتين وغرقت. تحت تأثير هذا الحديث، بدا البحر والليل والرياح بصورة بشعة، كما لو كانت موجودة من أجل إهلاك البشر، وشعرت بالأسى وأنا أنظر إلى هذا الرجل البدين القصير، وقد همس إليّ بأن هذا

الرجل المسكين، إن عاجلاً أو آجلاً، سيسقط إلى القاع ويختنق بالماء المالح.

عدت إلى قمرتي، لها رائحة تزكم الأنوف، وهناك رائحة طبخ. وكان رفيقي في السفر، سوفرين فيلس، نائماً بالفعل، خلعت كامل ملابسي وذهبت إلى الفراش.. بوووم بوووم بوووم!، كنت غارقاً في العرق، أتنفّس بصعوبة، واستبدّ بي الإجهاد من كثرة الاهتزاز، وتساءلت؛ «لماذا أنا هنا؟».

استيقظت. وكان الظلام قد انقشع. كنت مبلَّلاً بالعرق، ولفمي رائحة كريهة، ارتديت ملابسي وغادرت المكان. كل شيء عليه قطرات الندى. كانت الماعز البرّية تتطلَّع بعيون بشرية عبر قضبان القفص المحبوسة فيه، وبدت كما لو كانت تتساءل: «لماذا أنا هنا؟»، وكان ربّان الباخرة متسمِّراً ما زال، ويحدِّق في المدى.

إلى اليسار تمتدّ الجبال بمحاذاة الساحل، وتتبدّى «إلبورس» من خلف الجبال.

وأشرقت الشمس وسط الضباب الكثيف، وأصبح بالإمكان رؤية الوادي الأخضر لريون وخليج بوتي يمتدّ بمحاذاته.

4

إلى ابن عمِّه ميهائيل تشيخوف

تاجانروج، 10 مايو 1877

- إذا أرسلت لك رسائل كي توصلها إلى أمّي، أرجو أن تسلِّمها إليها على انفراد، فهناك أشياء في الحياة لا يستأمن عليها المرء سوى شخص واحد يثق فيه. ولهذا السبب أكتب إلى أمّي دون معرفة الآخرين ممن لا يأبهون بأسراري، أو لا تمثل لهم أهمية تذكر... أما رجائي الثاني فهو أكثر أهمّية؛ رجاءً لا تتوانَ عن إراحة أمّي، فهي -بدنياً ومعنوياً- معتلّة. إنها لا تعدّك مجرّد ابن أخ، فمكانتك عندها تفوق ذلك بكثير.

إن لأمي تلك الشخصية التي يمثِّل لها دعم الآخرين معنوياً دعماً شخصياً لها. إنه طلب سخيف، أليس كذلك؟. لكنك ستفهم، خاصة وأنني قد ذكرت «معنوياً» بمعنى الدعم الروحي. لا يستحقّ أي شخص، في هذا العالم الكريه، محبّتنا أكثر من أمهاتنا، وبناء على ذلك أتوقَّع أنك سوف تلزم خادمك الوضيع بأن يعمل من أجل راحة أمّه المعتلّة الواهنة للغاية.

5

إلى عمّه م. ج. تشيخوف

موسكو، 1885

لم أستطع القدوم لرؤيتك الصيف الماضي، لأنني حللت محلّ صديق لي يشغل منصب طبيب المقاطعة، والذي سافر لقضاء عطلته، لكن، هذا العام أودّ أن أسافر لأتمكَّن من رؤيتك.

في شهر ديسمبر الماضي، داهمتني نوبة من بصق الدم، وقررت أن أحصل على بعض المال من الاعتماد المالي الأدبي لأسافر إلى الخارج في رحلة علاج. أنا بحال أفضل الآن، لكنني ما زلت أعتقد أنه يجب عليّ السفر، وتحديد موعده، سواء إلى كريميا أو القوقاز، سأمرُّ عبر تاجانروج.

أشعر بالأسف لأنني لم أتمكَّن من الانضمام إليك لأكون في خدمة قومي من تاجانروج، فأنا على يقين من أنه إذا كان عملي هناك، فسأكون أهدأ وأكثر مرحاً، وبصحّة أفضل، لكن من الجليّ أن قدري أن أبقى في موسكو. فبيتي ومستقبلي المهني هنا. لديّ نوعان من العمل: كوني

طبيباً، كنت سأصبح كسولاً في تاجانروج، وأنسى الطب، لكن في موسكو ليس لدى الطبيب وقت فراغ ليذهب إلى النادي ويلعب الورق. وكوني كاتباً، فلا فائدة مني إلا في موسكو أو بطرسبرج.

أتقدَّم في مهنة الطبّ شيئاً فشيئاً. أداوم على مداواة المرضى. ويومياً أنفق روبيلاً واحداً على المواصلات. لديّ العديد من الأصدقاء، ومن ثَمَّ العديد من المرضى. وعليّ أن أعالج نصفهم بالمجّان، أما النصف الآخر فيدفعون لي من 4 إلى 5 روبيلات في الكشف الواحد. وبوسعي أن أعلن -دون قلق- أنني لم أثرَ بعد، وأنني بحاجة إلى وقت طويل لتحقيق ذلك، لكنني أعيش مستوراً، ولا أحتاج شيئاً. وطالما أنا على قيد الحياة، فسيكون وضع عائلتي المالي بأمان. اشتريت أثاثاً جديداً، واستأجرت بيانو بحالة جيدة، ولديّ خادمان، وأقيم بعض الحفلات المسائية الصغيرة بصحبة الموسيقى والغناء. لا ديون عليّ، ولا أنوي الاقتراض.

وحتى وقت قريب للغاية، كنا نشتري من الجزارة والبقالة على النوتة، أما الآن فلقد انتهى ذلك، وأصبحنا ندفع نقداً مقابل جميع مشترياتنا. أما القادم، فلا أحد يعلمه، وهكذا، فليس هناك ما نشكو منه.

موسكو، 18 يناير 1887

خلال العطلات كنت منهمكاً -للغاية- في العمل، لدرجة أنني كنت منهكاً جداً عندما حلّ يوم الشفيع الخاص بأمّي.

يجب أن أخبرك أنه في بطرسبرج أنا الآن أكثر الكتاب شهرة. ويستطيع المرء اكتشاف ذلك من الصحف والمجلات، والتي في نهاية العام 1886 كانت تهتمّ بي، وتتناقل اسمي وأخباري، وتمتدحني بأكثر مما أستحق. وكانت نتيجة تزايد شهرتي الأدبية أنني حظيت بعدد من الطلبات والدعوات، ومن ثمّ المزيد من العمل والضغوط والاستنفاد. عملي مرهق للأعصاب، ومزعج، ويخلِّف ضغطاً.

إنه عمل جماهيري، ويفرض الشعور بالمسؤولية، بما يضاعف من صعوبته. وكل صحيفة قدَّمت تقريراً عني، تتسبَّب في القلق لي ولأسرتي، وتُقرأ قصصي في محافل عامة، وأينما ذهبت يشير الناس نحوي، يربكني التزايد المستمرّ في أعداد من يعرفونني، وغير ذلك من تغيُّرات. لا أهنأ بيوم واحد من السكينة، وأشعر أنني أسير على الأشواك كل دقيقة.

فولوديا على حق، فلا يستطيع المرء أن يمتلك العالم، لكن، بوسعه أن يُدعى «سيد العالم». أخبر فولوديا أنه، بعيداً عن الإقرار بالفضل، والتبجيل أو الإعجاب بمناقب أفضل الرجال تلك السمات التي تجعل رجلاً ما فريداً ومناسباً للألوهية، من حقّ الشعوب والمؤرِّخين أن يطلقوا على من يختارونه ما يشاؤون، دون خشية من الإساءة إلى عظمة الربّ أو الاتّهام برفع الإنسان إلى مرتبة الربّ.

الحقيقة أننا نمجِّد الخصال الطيِّبة، وليس الشخص، ذلك المبدأ الإلهي

الذي نجح في تنميته داخل نفسه إلى درجة بعيدة. ووفقاً لذلك يُطلق على الملوك لقب «الأعظم»، رغم أنهم جسدياً ربما لا يكونون أطول من ل. ل. لوبودا، ويُدعى البابا بـ «قداسة البابا»، ويُطلق على البطريرك عادة «الكوني»، رغم عدم وجود روابط بينه وبين أي كوكب سوى الأرض، وهكذا كان يُطلق على الأمير فلاديمير لقب «سيّد العالم»، رغم أنه لم يكن يحكم سوى جزء صغير جدّاً من العالم،

يطلق على الأمراء ألقاب مثل «الجليل» و«ذائع الصيت»، رغم أن الثقاب السويدي أشهر منهم آلاف المرات، إلخ. وعند استخدام مثل هذه التعبيرات، لا نكذب أو نضخِّم ونفخِّم، لكننا نعبِّر، ببساطة، عن ابتهاجنا، مثلما أن الأم لا تكذب عندما تدعو طفلها «طفلي الذهبي». إنه الشعور بالجمال هو ما يتحدّث داخلنا، ولا يتحمَّل الجمال كل ما هو شائع وتافه، إنه يدفعنا إلى مقارنات لا يعيرها فولوديا -بذكائه- اهتماماً، لكنه سيدركها بقلبه. وعلى سبيل المثال، من المعتاد مقارنة العيون السود بالليل، والزرقاء بالأزرق السماوي، وتجعّدات الشعر بالأمواج....إلخ. وحتى الإنجيل يهوى تلك المقارنات، وعلى سبيل المثال «الرحم أكثر اتِّساعاً من الفردوس»، أو «شمس العدل أشرقت»، «صخرة الإيمان»... إلخ.

إن الشعور بالجمال الكامن داخل الإنسان لا يعرف حدوداً أو قيوداً. وربما لهذا السبب يطلق على الأمير الروسي «سيِّد العالم»، ويحمل صديقي فولوديا الاسم نفسه، فالأسماء تُمنَح للناس، لا لطبائعهم، بل تيمُّناً برجال من الماضي وتخليداً لذكراهم.

وإذا لم يتَّفق معي طالبك الشاب، فلديّ حجّة أخرى سيجدها مقنعة بلا شك: عند رفع البشر إلى مصافّ الربّ، فإننا لا نرتكب خطيئة ضد

الحبّ، بل -على النقيض- نحن نعبر عنه. فلا ينبغي أن نُحقِّر الناس، وذلك هو الشيء الجوهري. فمن الأفضل أن ندعو إنساناً بـ«ملاكي» من أن ننعته بالـ «الأحمق»، رغم أن البشر أقرب إلى أن يكونوا حمقى من أن يكونوا ملائكة.



تشيخوف وإلي اليمين أولجا كنيبر (1868-1959)، زوجته، وكانت ممثّلة مسرحية مرموقة، حصلت على جائزة الدولة للاتحاد السوفيتي.

6

إلى زوجته و. ل. كنيبر

يالطا، 26 مارس 1900

هناك شعور بالكآبة السوداوية في رسالتك، ممثِّلتي العزيزة، أنت كئيبة وتعيسة للغاية، لكن ذلك لن يدوم طويلاً، فبوسع المرء أن يتخيَّل أنك قريباً، قريباً للغاية، ستجلسين في القطار وتتناولين غداءك بشهيّة مفتوحة جداً. لطيف أن تأتي -أولاً- برفقة ماشا قبل الآخرين، فعلى الأقل سيكون بوسعنا أن نجد وقتاً للحديث معاً، ونتجوّل قليلاً، ونشاهد بعض الأشياء، ونشرب ونأكل. لكن، من فضلك لا تحضري معك (....).

ليس لديّ مسرحية جديدة، إنها كذبة صحافية. فالصحافة -دائماً- لا تقول الصدق عني. ولو أني قد بدأت مسرحية، لكنت أنت أول من يعرف بها.

تهبّ رياح قويّة، فالربيع لم يبدأ جدّياً هنا، لكننا نخرج ونتجول بلا كَلوش، وبلا قبعاتنا المصنوعة من الفرو. وقريباً للغاية ستزهر أشجار التوليب. لديّ حديقة جميلة هنا، لكنها غير منسَّقة، ومكسوّة بالطحالب،

إنها حديقة هواة بحقّ.

جوركي هنا. إنه متحمِّس في مديحه لك ولأعمالك المسرحية. سأقدِّمك له عند مجيئك.

أوه يا عزيزتي! لقد وصل شخص ما. إنه زائر. وداعاً مؤقَّتاً أيتها الممثِّلة!.

يالطا، 20 مايو 1900

تحيّاتي لك، أيتها الممثِّلة العزيزة الساحرة!. كيف حالك؟ كيف تشعرين؟ كنت بحالة سيئة للغاية في أثناء عودتي إلى يالطا. عانيت صداعاً شديداً وارتفاعاً في درجة الحرارة قبل مغادرة موسكو. كان الأمر خطيراً، وحبَّذت إخفاءه عنك، والآن أنا بخير حال.

كيف حال ليفيتان؟ أشعر بقلق رهيب لانقطاع أخباره عني. إذا عرفت شيئاً أرجو أن تكتبي لي.

حافظي على نفسك، واستمتعي بوقتك. سمعت أن ماشا أرسل لك رسالة، ولهذا سارعت بكتابة هذه السطور المعدودات.

يالطا، 14 فبراير، 1900

عزيزتي الممثِّلة،

الصور رائعة للغاية، خاصة تلك الصورة التي تظهرين فيها مستلقية وعلى وجهك مسحة حزن، ومنكباك يستندان على ظهر مقعد، مما يضفي عليك مسحة من الشجن الشفيف، وتعبيراً لطيفاً يخفي روحاً شيطانية صغيرة. وهناك صورة أخرى جيدة، لكنك فيها تبدين شبيهة قليلاً بامرأة يهودية تقليدية، مثل موسيقية تحضر درساً في معهد الموسيقى، لكن في الوقت ذاته تدرس طبّ الأسنان على طبيب بارع وذلك كتخصُّص ثانٍ، وهي مخطوبة وستتزوج رجلاً في موجيليف، وهذا الخطيب شخص يشبه «م» هل أنت غاضبة؟ حقاً، غاضبة حقاً؟ إنه انتقامي منك لأنك لم توقِّعي لي على هذه الصور.

من بين السبعين زهرة التي زرعتها الخريف الماضي، ثلاثة فقط لم تنبت. فجميع زهور الليلك والسوسن والتوليب ومسك الروم والمكحلة، جميعها نبتت. والصفصاف اخضوضر فعلياً. وهناك وفرة من العشب الأخضر بالقرب من المقعد الصغير الموجود عند الزاوية. وشجرة اللوز أزهرت هي الأخرى.

لقد وضعت مقاعد صغيرة في جميع أرجاء الحديقة، لم أختر تلك المقاعد الضخمة ذات القوائم الحديدية، بل اخترت تلك المصنوعة من الخشب بعد أن قمت بطلائها باللون الأخضر. كذلك قمت ببناء ثلاثة جسور فوق المجرى المائي. وزرعت أشجار النخيل. فعلياً، توجد جميع أنواع الأشياء الجديدة، لدرجة أنك لن تتعرَّفي إلى المنزل أو الحديقة

أو الشارع. فقط. المالك لم يتغيَّر، إنه الشخص نفسه فاتر الهمة والذي كرَّس نفسه لتبجيل المواهب التي تقيم عند نيكيتسكي جيت. ولم أسمع أي موسيقى أو غناء منذ الخريف الماضي، ولم أرَ امرأة ممتعة. فكيف بوسعي أن أعاون مصاباً بالاكتئاب؟

كنت قد عقدت العزم على عدم الكتابة لك، لكن بعد أن أرسلت الصور، تراجعت عن موقفي، وها أنا أكتب لك. بل إنني سآتي إلى سيفايتوبول، وأكرِّرها عليك: لا تخبري أحداً، خاصة فشنيفسكي. سآتي تحت اسم مستعار، سأسجَّل في دفتر الفندق باسم بلاكفيتش.

كنت أمزح عندما قلت أنك تشبهين امرأة يهودية في إحدى الصور التي أرسلتِها. لا تغضبي، يا غاليتي. حسناً، تلك قبلة مني ليدك الصغيرة.

المخلص لك دائما

يالطا، 10 فبراير 1900

ممثِّلتي الغالية،

الشتاء بارد للغاية، ولست على ما يُرام، ولم يكتب أحد إليّ منذ قرابة شهر بأكمله، وثَبُتَ لديّ أنه لم يعد أمامي من شيء سوى السفر إلى الخارج، حيث الأجواء ليست راكدة للغاية، لكن، الآن، تحسن الطقس، وأصبح أدفأ، وقرّرت أنني سأسافر إلى الخارج -فقط- في نهاية الصيف، وذلك للاستفادة من الإعانة التعليمية.

وأنت، لماذا مصابة بالاكتئاب؟ ما الذي أصابك بالاكتئاب؟. فأنت تعيشين، وتعملين، وتمرحين وتشربين، وتضحكين عندما يقرأ عمّك بصوت مرتفع لك، فأي شيء تريدين أكثر من ذلك؟ أما بالنسبة لي فالوضع مختلف: تمزِّقني مسألة الجذور، فأنا أعيش عيشة منقوصة، لا أشرب رغم أنني مغرم بالشراب، أعشق الضوضاء لكنني لا أسمعها، حقيقة أنا مثل شجرة تمّ نقلها إلى مكان جديد، وتعاني التردُّد بين أن تضرب بجذورها في الأرض أو تذبل. لو كنت أسمح لنفسي من حين لآخر أن أشكو الضجر، فلديّ دوافعي لذلك، لكن، ماذا بالنسبة لك؟ كذلك يشكو ميرهولد من رتابة حياته هو الآخر!.

وعلى ذِكر ميرهولد، إنه بحاجة لقضاء الصيف بأكمله في كريميا. حالته الصحية تتطلَّب ذلك. لكن، يجب أن يقضي الصيف كاملاً.

حسناً، تحسَّنت حالتي مجدَّداً. لا أفعل شيئاً لأنني أنوي أن أكرِّس نفسي للعمل لاحقاً. أكتفي بالحفر في الحديقة. أكتب ذلك لك، فبالنسبة لنا نحن -البشر الضئيلين- المستقبل لغز محجوب. وصلتني رسالة من

رئيسك نميروفيتش منذ فترة ليست طويلة جداً. ذكر فيها أن الشركة ستعرض مسرحياتها في سيفاستوبول، ثم يالطا، وذلك مع بداية شهر مايو. وفي يالطا سيتم تقديم خمسة عروض، ثم بروفات مسائية. فقط الأعضاء المميَّزين في الفرقة سيبقون لهذه البروفات، أما الباقون فسيكون بوسعهم الاستمتاع بالعطلة. مُتأكد أنك من المميَّزين. بالنسبة للمخرج أنت متميّزة، وبالنسبة للمؤلِّف أنت بالغة النفاسة.

لديّ مفاجأة لك؛ لن أكتب لك مجدَّداً إلا بعد أن ترسلي لي صورتك «بورتريه».

يالطا، 22 يناير 1900

ممثِّلتي العزيزة

في السابع عشر كم يناير وصلتني برقيات من أمّك وأخيك وعمّك «ألكسندر إيفانوفيتش» الذي وقّع بـ«العم ساشا»، ومن ن. ن. سوكولوفسكي.

أرجو أن تكوني حميمة بالقدر الذي يجعلك تنقلي خالص شكري وامتناني لهم.

لماذا لا تكتبين إليّ؟ ماذا حدث؟ أم أنت الآن مفتونة للغاية؟ حسناً، ما باليد حيلة. ليكن الربّ في عونك.

أُخبرت أنك ستصلين إلى يالطا في شهر مايو. إذا كان ذلك أمراً نهائياً، فلماذا لم تتقدَّمي ببعض الاستيضاحات حول المسرح؟. فالمسرح هنا يتمّ تأجيره، ولن تتمكَّني من استئجاره إلا بعد التفاوض مع من يستأجره حالياً، وهو الممثل نوفيكوف. وإذا فوَّضتني للقيام بذلك الأمر، فربما أتحدَّث إليه غداً.

في السابع عشر من هذا الشهر، مَرَّت ذكرى عيد الشفيع الخاصة بي، وكذلك ذكرى اختياري للأكاديمية، مَرَّت كلتاهما باهتة وكئيبة، فلقد كنت مريضاً. الآن تحسَّنت حالتي، لكن أمّي هي المريضة. ومثل تلك المشكلات الصغيرة تذهب بالقدرة على الاستمتاع أو التحمُّس، سواء لعيد الشفيع أو لاختياري للأكاديمية. كذلك منعتني من الكتابة إليك والردّ على برقيتك في الوقت المناسب.

أمّي تتحسَّن الآن.

أرى عائلة سردين من حين لآخر. إنهم يأتون لزيارتنا، ومن النادر أن أزورهم، لكنني لم أنقطع ،تماماً، عنهم.

إذاً، أنت لا تكتبين إليَّ، ولا تنوين ذلك قريباً كذلك. إن إكس هو الملام على كل ذلك. أفهم موقفك!.

أقبِّل يدك الصغيرة.

يالطا، 2 يناير، 1900

تحياتي، ممثّلتي العزيزة! هل أنت غاضبة لأنني لم أكتب إليك منذ فترة طويلة؟ اعتدت الكتابة إليك دون انقطاع، لكن الرسائل لم تصلك لأن معارفنا المشتركين كانوا يحصلون عليها من مكاتب البريد، ولا يقومون بتوصيلها إليك..

أتمنّى لكم السعادة في العام الجديد. بصدق، أتمنى لك السعادة، وأنحني لاثماً قدميك الصغيرتين. لك خالص أمنياتي بالسعادة والثراء والصحة والابتهاج. نحن بأفضل حال هنا، نأكل كثيراً، وندردش كثيراً، ونضحك كثيراً، وغالباً ما نتحدث عنك. ستخبرك ماشا عندما تعود إلى موسكو كيف أمضينا الكريسماس.

لم أهنِّئك على نجاح مسرحيتك «حيوات وحيدة Lonely Lives»، فما زلت آمل أنك ستأتين إلى يالطا، وأنني سأراك على المسرح تمثِّلينها، وعندها أهنِّئك خالص التهنئة. كتبت إلى ميرهولد، وطلبت منه في رسالتي ألا يكون عنيفاً للغاية معك في الجزء المتعلِّق بالرجل العصبي. الغالبية العظمى من الناس عصبيون، كما تعرفين؛ فالعدد الأكبر منهم يعاني معاناة دائمة، لكن عدداً محدوداً تنتابه نوبات حادّة، لكن، سواء في الشوارع أو في المنازل، هل سبق لك أن رأيت أشخاصاً ينتحبون، يتقافزون ويخبطون رؤوسهم؟ يجب التعبير عن المهانات بالطريقة التي يتمّ التعبير بها في الحياة، وليس بالأيادي والأرجل، بل بنبرة الصوت ودرجة التعبير، لا بالإيماءات، وبرشاقة أيضاً. إن الانفعالات الرقيقة للروح لدى الأشخاص المتعلِّمين يجب التعبير عنها ظاهرياً بخفّة. ستقولين: إنها القواعد المسرحية، وسأردّ: مامن قواعد تبرِّر الزيف.

أخبرتني أختي أنك قمت بأداء دور «آنّا» ببراعة. آه، كم أتمنّى أن تأتي فرقة مسرح الفن إلى يالطا! امتدحت مجلة «نوفوي فريميا» فرقتكم المسرحية. وهناك تغيُّر في نهج هذه المجلة الفصلية، فمن الواضح أنهم سيتوجَّهون إلى امتداحك دون النظر لأية اعتبارات. سيتمّ نشر قصّتي الجديدة، وهي غريبة للغاية، في عدد شهر فبراير من مجلة«Zhizn». وهناك عدد هائل من الشخصيات،وهناك مشهدية كذلك، هناك هلال، وطائر الواق دائم الصياح، ومن بعيد يتعالى صياح «بووو! بوووو!» كما لو كانت بقرة محتجزة بمفردها. كل شيء موجود في هذه القصة..

ليفتان موجود معنا. فوق مدفئتي رَسَم قمراً يطلّ على حقل ممتلئ بالقشّ والتبن في أكوام، وهناك غابة بعيدة.

حسناً، أتمنّى لك موفور الصحة يا عزيزتي، الممثِّلة الرائعة. أتوق إلى رؤياك.

متى سترسلين لي صورك؟ يالها من خيانة!.

يالطا، 30 أكتوبر، 1899

تسألين إن كنت سأشعر بالإثارة، رغم أنك تعرفين أنني -فقط- سمعت أن «العم فانيا» كان يجب أن يُسلِّم في يوم السادس والعشرين من هذا الشهر رسالتك التي استلمتها في اليوم السابع والعشرين. بدأ توافد البرقيات عليّ مساء السابع والعشرين بينما كنت في الفراش. أرسلوها إليّ عبر الهاتف. كنت أستيقظ كل مرة، وأعدو حافي القدمين إلى الهاتف، وأنا أرتجف من البرد، ثمّ لا أكاد أغفو حتى يرنّ الهاتف مرة بعد أخرى. إنها المرة الأولى التي تحرمني فيها شهرتي من النوم. وفي المساء التالي، وقبل أن أنام، شبشبي و«الروب دي شامبر» كانا جوار سريري، لكن لم يصلني المزيد من البرقيات.

احتوت البرقيات على عدد المكالمات والنجاح الباهر، لكن، كان هناك شيء غامض، بل محيِّر، فيها، ومنه توصَّلت إلى استنتاج بأن حالتكم العقلية، جميعاً، لم تكن بأفضل أحوالها. وأكَّدت الصحف التي وصلتني اليوم صحِّة استنتاجي.

نعم يا ممثلتي العزيزة، فالنجاح المتوسِّط والمعتاد ليس كافياً لكم جميعاً أنتم، أيّها الممثِّلون المسرحيون، فأنتم بحاجة إلى شيء مدوٍّ للغاية. مؤخَّراً تعرَّضتم للإفساد، بل أصابكم الصمم من تكرار الحديث عن النجاحات، والمسارح الممتلئة بالمشاهدين وتلك الخاوية، لقد تسمَّمتم بذلك العقار وخلال عامين أو ثلاثة أعوام لن تكونوا صالحين لشيء. والشيء نفسه ينطبق عليك! هل أنت غاضبة؟ ما شعورك؟ أنا ما زلت في المكان نفسه، وما زلت الشخص نفسه، أعمل، وأزرع الأشجار.

لكن الزوّار يتوافدون، ولا أستطيع الاستمرار في الكتابة. إنهم يمكثون لأكثر من ساعة، يطلبون الشاي، ويطلبونه في السماور. أوه، كم أنا مستوحش ومكتئب!

لا تنسيني، ولا تسمحي بتبدُّد الصداقة التي بيننا، فربما يتسنّى لنا أن نذهب سوياً إلى مكان ما خلال هذا الصيف.

والآن: وداعاً مؤقتاً؟ ربما لن نلتقي قبل شهر أبريل. وإذا كنتم ستأتون جميعاً إلى يالطا، للتمثيل والراحة، فسيكون ذلك أمراً رائعاً للغاية. سيحمل أحد الزوّار هذه الرسالة ليلقيها في صندوق البريد.

ملحوظة: ممثِّلتي العزيزة، أستحلفك بكل مقدَّس أن تكتبي إليّ، أنا مستوحش ومكتئب. ربما أكون في سجن، وأنا ممتلئ بالغضب والغيظ.

يالطا، 1 نوفمبر 1899

أتفهَّم حالتك المزاجية، ممثّلتي العزيزة، أتفهَّمها للغاية، لكن حتى لو كنت مكانك، لم أكن لأشعر بمثل هذا الاضطراب اليائس. فلا شخصية آنّا، ولا المسرحية بكاملها جديرة بكل هذه المشاعر والإرهاق العصبي. إنها مسرحية قديمة. إنها عتيقة، وفيها كثير من العيوب والنواقص، فإذا لم يتوصّل أكثر من نصف الممثلِّين إلى درجة الأداء ونبرة الصوت الصحيحة، فهذا عيب المسرحية بلا جدال. وهذا شيء، أما الشيء الثاني فهو أنك لابدّ أن تتوقّفي عن القلق بشأن النجاح والقلق. لا تدَعي مثل هذه الأشياء تشغلك. إنه واجبك أن تداومي على العمل يوماً بعد يوم، بإتقان، وفي صمت، وأن تكوني متأهبّة لارتكاب الأخطاء التي لا يمكن تجنُّبها، وللإخفاقات. إجمالاً يجب أن تقومي بأداء وظيفتك كممثِّلة، واتركي للآخرين مهمّة إحصاء عدد المكالمات قبل فتح الستارة. فعندما يكتب المرء أو يمثل، يجب أن يكون واعياً بأنه لا يفعل الشيء الصحيح، فهذا أمر معتاد، وبالنسبة للمبتدئين هو مفيد للغاية!.

ثالث الأشياء أن المخرج قد أرسل لي برقية أن العرض الثاني كان رائعاً، وأن جميع الممثّلين كانوا متميِّزين في أداء أدوارهم، وأنه كان راضياً للغاية.

يالطا، 30 سبتمبر 1899.

حسب طلبك أسرعت بالردّ على رسالتك التي سألتِني فيها عن آخر مشهد مسرحي جمع بين أستروف وإلينا.

كتبتي أن أستروف يخاطب إلينا في هذا المشهد مثل عاشق ولهان، «إنه يتشبّث بمشاعره مثل غريق يتشبّث بقشّة»، لكن هذا ليس صحيحاً، ليس صحيحاً على الإطلاق! إن أستروف معجب بإلينا، ولقد اجتذبته بجمالها، لكن، في المشهد الأخير عرف أنه لا أمل له فيها، وهكذا تحدَّث إليها في ذلك المشهد بنبرة صوت تشبه الحرارة في إفريقيا، وقبَّلها بطريقة اعتيادية للغاية لتمضية الوقت. لو أن أستروف قد تعامل مع هذا المشهد بعنف، لكان المزاج العام للمشهد الرابع تلاشى تماماً.



منزل تشيخوف في يالطا

(خمس سنوات من الحبّ والزواج بين أنطون تشيخوف والممثِّلة أولجا كنيبر، والتي قامت بأداء العديد من الأدوار النسائية الرئيسة في مسرحياته، من أشهر قصص الحبّ في المسرح. وبسبب ارتباط أولجا بالعمل في مسرح موسكو، واضطرار تشيخوف للبقاء في يالطا بسبب حالته الصحية، استمرّت علاقتهما رغم المسافة، بل توطدت متجاوزة عقبات خطيرة وذلك خلال تبادل الرسائل الدائم بينهما. وبعد وفاة تشيخوف، داومت أولجا -لشهرين- على كتابة يومياتها، وكانت عبارة عن رسائل متخيَّلة إلى تشيخوف).

7

من أولجا إلى تشيخوف بعد وفاته

19 أغسطس، 1904

أخيراً أصبحت قادرة على الكتابة إليك، يا عزيزي، وأنا أشعر بك قريباً جداً رغم أنك بعيد للغاية! لا أعرف أين أنت الآن. ولقد انتظرت طويلاً اليوم الذي أستطيع أن أكتب لك فيه.

اليوم، ذهبت إلى موسكو وزرت قبرك... كم هو رائع، لو تعلم! فبعد الجفاف المنتشر في الجنوب، كل شيء هنا مورق ومثمر، وعَبِق للغاية، وفوّاح للغاية، تفوح رائحة الأرض والعشب الطازج، وللأشجار ذلك الحفيف الناعم. لا أستطيع أن أصدّق أنك لست بين الأحياء! أنا في حاجة ماسّة للكتابة إليك، لأخبرك بكل شيء مررت به منذ احتضارك وتلك اللحظة التي توقَّف عندها قلبك عن الخفقان، قلبك المسكين والمريض والواهن جداً.

الآن، بينما أكتب إليك، يبدو الوضع غريباً لكن تسيطر عليك رغبة عارمة في القيام بذلك. وبينما أكتب إليك، أشعر أنك على قيد الحياة. هناك في

مكان ما، تنتظر تلك الرسالة. يا أغلى الأحباب، يا حبيبي، دعني أتفوّه ببعض الكلمات الشاعرية، دعني أمسِّد شعرك الناعم المنساب، وأنظر في عينيك اللامعتين العزيزتين. آه، لو عرفت ما إذا كنت قد استشعرت أنك تُحتَضر. أظن أنك استشعرت ذلك، ربما بشكل مُبهم، لكنك -يقيناً- استشعرت ذلك.

20 أغسطس 1904

عزيزي، لقد عدت توّاً من لقاء بأخيك إيفان، وأزعجته بسرد تفاصيل الأيام الأخيرة في حياتك، لكنني استشعرت أنه استفاد من ذلك رغم انزعاجه وضجره. وبوسعي أن أحكي عن كل شيء، بوسعي أن أحكي للأبد عن بادنفايلر، وعنك، وعن شيء ما عظيم وهائل حدث في تلك المدينة الثرية ذات اللون الأخضر الزمرّدي والموجودة في الغابة السوداء. هل تذكر كم أحببنا جولاتنا على عربة نقل الحقائب التي أطلقنا عليها اسم «جولة سياحية»؟ لقد كنت ودوداً للغاية، كم تفهّمتك في أوقات مثل تلك؟. هل تتذكَّر كيف كنّا نتجوَّل، كنت تعتصر يدي بتؤدة، وعندها كنت أسألك عما إذا كنت بخير حال، ولم تكن تعلِّق بشيء، فقط تومئ برأسك، وتمنحني ابتسامة على سبيل الإجابة، ورغبة مني في التعبير عن احترامك، كنت أحياناً أُقبِّل يدك!.

وكنت تمسك بيدي طويلاً، ثم نستمرّ في التقدُّم عبر غابة الصنوبر الفوّاحة. كم كنت تفضل تلك البقعة المعشوشبة التي تغمرها الشمس! وكيف كان الطريق يصبح وعراً بامتداد أحد الخنادق، وعندئذ كنت تداوم على توجيه السائق بالتزام القيادة بمزيد من البطء، كم كنت تبتهج لرؤية أشجار الفاكهة الممتدّة عى مساحة شاسعة دون أسوار حولها، ودون أن تُسرَق منها ولو حبة كرز أو كمثرى. كنت تتذكَّر وطننا، روسيا البائسة. هل تتذكَّر الطاحونة الرائعة، وكم كانت منخفضة لدرجة احتجابها وسط الأعشاب الكثيفة، ولا يدل على وجودها سوى بريق قطرات الماء على عجلتها الدوارة؟ كم كنت تهوى القرى النظيفة والمريحة والحدائق الصغيرة حيث تمتدّ صفوف منتظمة من الزنابق البيضاء، وأحواض

الزهور، والحدائق المزروعة بالخضروات والفاكهة! وكم كنت متألِّماً وأنت تقول: عزيزتي، متى يعيش فلّاحونا في منازل صغيرة مثل هذه!

حبيبي الغالي، أين أنت الآن؟

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
	• فتنة الحكاية جون أيديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر الحداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلي العائلة	ترجمة: ياسر شعبان

صدر في سلسلة كتاب الدوحة













يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني **www.aldohamagazine.com**

أنطون تشيخوف

رسائل إلى العائلة

كنت قد عقدت العزم على عدم الكتابة لك، لكن بعد أن أرسلت الصور، تراجعت عن موقفي، وها أنا أكتب لك. بل إنني سآتي إلى سيفايتوبول، وأكرّرها عليك: لا تخبري أحداً، خاصة فشنيفسكي. سآتي تحت اسم مستعار، سأسجِّل في دفتر الفندق باسم بلاكفيتش.



وزارة الثقافة والفنون والتراث

الدوحة - قطر

www.aldohamagazine.com